روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتيرا التحرير
محمود قاسم
مؤمن حسين

●

ثمن النسخة

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٥٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

مذكرات

محكوم عليه بالإعدام

للكاتب الأشهر

فيكتور هيجو

ترجمة
لطفى سلطان

الطبعة الأولى فبراير ١٩٦٠
الطبعة الثانية فبراير [illegible]



صدر هذا الكتاب بالاشتراك مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون (قسم الترجمة) التابع لسفارة فرنسا بالقاهرة

مقدمة

بقلم فيكتور هيجو

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر اول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب،أو ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ماجال بذهن انسان بائس من افكار ، ورقة بعد ورقة ، أو انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر ـ لست أدرى ـ كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، أو بالأحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب .. وعلى القارىء أن يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له »

ويستطيع القارىء ان يلاحظ ان المؤلف لم يجد من المناسب ان يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر ان ينتظر

حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام ان حققت ماكان يتوق الى معرفته ، اذ فهم الجمهور فكرته التى ضمنها هذا الكتاب . ويستطيع المؤلف اليوم ان يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى اراد ان يروج لها فى هذا القالب الأدبى الساذج البرىء ، فهو يعترف اذن ، أو بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، ان كتاب « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا ــ او غير مباشر ان شئت ــ عن الغاء عقوبة الاعدام

ان ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وماكان يريد ان تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بأمره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب ،فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ؛ بل هو فى حقيقة أمره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك (أى رجال القضاء) . نعم ، اننى أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات

الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن نراها فيه ، مكانها الواقعى على الطبيعة ، وفى بيئتها الشنيعة المروعة ، لا عند القاضى فى المحكمة ، ولكن على المقصلة .. عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذى رمى اليه من تأليف هذا الكتاب . فان كلل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ــ وهو مالايجسر على ان يأمله ــ فسوف يغنيه هذا عن كل شيء آخر

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ،سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، امام جميع المحاكم وسائر ممثلى الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكى يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطى كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » ، أو « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هذه الصورة ، وان يحذف من موضوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية ، وكل ماله صلة بالحادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما،محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما فى أى يوم من الايام

وسوف يكون من دواعى سعادة المؤلف لو أنه استطاع ــ دون أن يستعين بشيء آخر غير تفكيره ــ أن يتعمق فى موضوعه كل التعمق كى يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء ،ولو انه تمكن من أن يبعث الرحمة فى قلوب

اولئك الذين يحسبون أنهم عدول ، وسوف يكون من دواعى سروره لو انه استطاع بتعمقه فى نفسية القاضى ان ينجح احيانا فى ان يجد فيه انسانا !

▱

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم ان يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم انه قد اخذها عن كتاب انجليزى ، وذهب فريق آخر الى انه قد اقتبسها عن كتاب امريكى ، وتلك لعمرى سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الاشياء بعيدا جدا ، على مسيرة آلاف الاميال ، وتجعل النهير الذى يغسل ماؤه شارعك يأتى من منابع النيل !

ومما يدعو للاسف أن أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا امريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد ، وانما اخذها من حيث تستطيعون جميعكم ان تأخذوها او من حيث يحتمل ان تكونوا قد لمستموها بالفعل (اذ من منا لم يحلم ، أو يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، فى آخر يوم فى حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟) .. من الشارع ، بكل بساطة ، أو من الميدان العام ، أو من ساحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهى ملقاة على الارض فى بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الاحمر الرهيب !

وكلما كان يذاع حكم بالاعدام فى باريس ، تبعا لقضاة محكمة النقض فى أيام الخميس الكئيبة ، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود الى المؤلف وتستولى على نفسه ، فى كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التى تجمع المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ راسه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير ، وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البائس المحتضر ساعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين — وهو شاعر مرهف الحس رقيق الشعور — على ان يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هذه العملية البشعة ، وكان هذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهى بعد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ راسه ونفسه فتعطل كل اعماله ، وتعترض سبيله فى كل شىء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدأ مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الساعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد ان يتنفس الفجر ، كان فى

وسع المؤلف ان يتنفس وان يجد فى نفسه شيئا من الحرية !

واخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ـ على ما يعتقد ـ فى اليوم التالى لاعدام « دولباخ » ، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين ، واصبح ضميره يوحى اليه انه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها تنفيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطرة الدماء التى تسقط من ساحة الاعدام على راس كل فرد من افراد المجتمع

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شيء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا ، فلن يعرف المؤلف هدفا اسمى ولا اسلم ولا انبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الامم ، الذين يعملون جاهدين منذ عدة اعوام من اجل اسقاط المقصلة ، وهى الشيء الوحيد الذى لاتجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف ان يأتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عديدة على رءوس الناس

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هى البناء الوحيد الذى لاتقوضه الثورات ، والواقع انه يندر أن تبخل الثورات بدم

البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمع واوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لاتتنازل عنها الا بصعوبة بالغة

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا ان تلغى عقوبة الاعدام ، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ، اذ يبدو لنا فى الواقع انه من واجب اكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر الحديث ان تلغى هذه العقوبة البربرية التى انشأها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ، وان تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر اغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء ان يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا أن عقوبة الاعدام قد ألغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا اشد المضايقة !

---

(١) ريشيليو احد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . اماروبسبير فهو ارهابى من رجال الثورة الفرنسية

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة أثر دام من هذه الآثار ، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وأنها حرقت مع ما حرق ، وظللنا لعدة أسابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية

والواقع انه ما كاد ينقضى شهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف ، الى المهارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة تقريبا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة اخرى غير المصلحة العامة

اننا نتذكر انه فى شهر اكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعد أن استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام ، اخذ ممثلو الأمة جميعا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسألة الحكم بالاعدام على بساط البحث ، وسوف نذكر بعد بضعة أسطر فى اية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عندئذ ان قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة ، حتى انهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السماء ! .. الحكم بالاعدام ! .. يا اله السموات والارض ! .. يا له من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هذا النائب العام

الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر ، والذى سلخ كل حياته وهو يأكل الخبز مغموسا فى دم الاتهامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشفقة ، واشهد الآلهة على انه يمقت المقصلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الأمر وكأنه « محزنة » ندب فيها التدابون ، ورددوا فاصلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطباء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى ، والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هناك نقص فى اى شيء . وكان الأمر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى اقصى حد ، خاصة وان جلسة الليل كانت أبوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى اعين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبة الاعدام ؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

أن اربعة رجال من المجتمع الراقى ، اربعة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات

مؤدبة ، أقول ان أربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، فى الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم او المشاريع بالاعدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء وأسرى فى قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن « فانسين » .. فما العمل وكيف العمل ؟..

لاشك فى انكم تفهمون انه يستحيل ان يرسل الى ساحةالاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. أربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الآخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب ألا يذكر اسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه !.. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !

وهنا تحرك البرلمان وبدأ فى العمل !

ارجو ان تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الامس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيالية ، وبأنه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك أن هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم الى العربة « الكارو » ، والى الحبال الغليظة ، والى الآلة الحمراء البشعة ! انه لن

الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجأة على هذا النحو !

صمتا ! فالأمر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك انت ايها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد أن تعض المقصلة الطبقات العليا ، ومن أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسننا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير اننا لم نفكر الا فى انفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجاة ، وفى أية لحظة ، تحت « أزميل » النحات . ان تماثلكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد

ونحن لا نشعر يقينا باننا فى حاجة الى ان نعلن ذلك هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامراتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع . لقد انعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ، قد ابيض شعره قبل

الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من اغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى انفسنا ، وهو اثر لم نكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان احدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين ان تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبةالاستعداد لان نضحى فى هذا السبيل، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى انه سوف تحدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وسوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا ان نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى أوقات الازمات السياسية ، فان المشنقة السياسية تكون ابشعها واكثرها شؤما واوفرها سما واجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، ويترعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب

لقد كنا اذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ

رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على اية صورة من الصور ، وذلك لأسباب عاطفية واخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام

ولو انهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط اربعة وزراء من قصر التويلرى (قصر الحكم) الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجرم عادى ، من أجل واحد من هؤلاء البائسين الذين لاتدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم ، هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قارعة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ ، مطابخ مطعم « مسيو ڤيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل ان يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تسلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهذه تدفع بهم الى الباقى . . ! انهم اطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم اصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم

سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم اناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لأنكم لاتدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لانفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » واخرى فى مقبرة « كلامار » ، لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم .. فلو انكم اقترحتم الغاء عقـــوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل .

فمنذ أن دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخـــارجين على الكنيسة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهيـــة ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ما هو أكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا أن يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو أنها عنيت بأمر الفقير المعدم، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو أنكم كنتم ألغيتم عقوبة الاعدام من أجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى ذلك ، لأتممتم بهذا ماهو أكثر من العمل السياسى ، ولأتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسى بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته ، ولكن لانقاذ أربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحـــداث

انقلاب !

فماذا حدث ؟ انكم قد أثرتم الريب والشكوك ، نظرا لأنكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة ، لقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع انه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فأنتم قد أسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الأمد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظـــارة لكم

ومع ذلك ، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخـــذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مبـــاشرة ، من حامل الاختام — وهو رجل شريف — الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام الى اجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صـــدر عليهم ، وانقذت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن « هام — Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد أن تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل أثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشـــاعر الانسانية ، ولم يعد أحد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام ..

ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة اشهر او ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من انهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن ، صبرا لحظة !

□

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الفقير وعن التقدم ، ظن انه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لايحس بأدنى سرور أو ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا ان يجعل الناس ينسون أمره ، وكان يسد أذنيه ، ولا يجرؤ على ان يلتقط انفاسه .. لم يعد يراه احد منذ ستة أشهر ، ولم يكن أحد يدرى ما إذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد اخذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت الى ما كان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد القت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية

معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون بأشياء اخرى على شىء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، او منح اعانة لممثلى دار الأوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة الف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ، هو : قاطع الرءوس !

وما ان رأى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، واطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الامام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فأر من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ، ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدأ واتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وامسك بأحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى اول سجن صادفه ، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، أمسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، واعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شىء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة اشهر اجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة ويتعلقون

بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة الفي وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شـــديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى ان أسألكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ الا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا فى الحكومة كان لايعنيه الامر، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا ! .. لم يعد أحد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد ان يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل امر وحشى ، أمر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى انه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف اكثر بشاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ أحكام الاعدام ، الذى صدر الامر به فى شهر يوليو ـ ولم تكن قصص ما يجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت الناس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عـدل موجه لأولئك الذين أعادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ما صنعوه

▱

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة امثال لما حدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة . يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمرأة لها أثرها أحيانا فى

فى نهاية شهر ســبتمبر الماضى على وجه التقريب ، وفى أواسط فرنسا ـ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك أحد أو عارض فى صحة هذه الواقعة ـ ونعتقد أن ذلك حدث فى « باميه » . فقد دخلوا على رجل فى سجنه حيث كان يلعب الورق فى هدوء ، فأنبأوه بأنه ســوف يموت بعد ساعتين ، فأرسل هذا القول رجفة قاسية فى كل أوصاله . ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمره لستة أشهر فلم يعد يفكر فى الموت .. وحلقوا للرجل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس . ثم اركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجمــاهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ

والى هنا ، فالأمر يهون ، اذ أنه يتم على هــذا النحو . ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطأطىء رأسه وهوت السكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل فى صعوبة ثم هوى وهو يحك فى مجراه ! وهنا بدأت البشاعة ، فقد أخذت السكين تحز فى رقبة الرجل دون أن تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد فى الامر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة السكين مرة أخرى ولـكنها لم تقطعها . فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع

الجلاد السكين مرة ثالثةوهو يأمل خيراً فى الضربةالثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء اخذ يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من أثر الضربة ، وهز رأسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة ، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأســه نصف المقطوع ، الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه!

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وان يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعــــدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث ورآه الناس رأى العين .. نعم ، رأوه رأى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه ان يوقف كل شىء ! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يغتالون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، أمام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !

فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما اعدم السيد « دى شاليه » أمام الناس فى ميدان بمدينة «نانت» على يدى جندى غير ماهر ضربه اربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من ان يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقـــا وأقيمت قضية . ولئن كان ريشيليو لم يعـــاقب ، ولئن كان

(١) يقول لا بورت انها اثنتـــان وعشرون ضربة ويقول « أوبرى » انها اربع وثلاثون .. وكان مسيو « دى شاليه » يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

كريستوف فوكيه لم يعاقب ، فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

أما هنا، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هـذا الحادث بعد شهر يوليو فى وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشـهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد !

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد اتلفت عمدا ، أتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

وفى مدينة « ديجون » ، سيقت امراة منذ ثلاثة أشهر الى ساحة الاعدام ، (تصوروا .. امراة !) ، وفى هذه المرة أيضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الراس تماما بحيث ينفصـل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمى المرأة ، وفصلوا رأس البائسـة عن جسدها وهى تطلق صرخات مدوية ، بأن انتزعوها انتزاعا

---

(١) يعنى المقصلة التى عرفت فى فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهـذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتورجيوتان — المترجم

بقوة الشد والجذب

وفى باريس ، نعود الى الوقت الذى كان يجرى فيه تنفيذ عقوبة الاعدام فى السر . فنظرا الى انهم كانوا منذ شهر يوليو لايجرءون على تنفيذ احكام الاعدام فى ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما انهم كانوا جبناء ، فأن هـذا هو ماحدث :

لقد أخذوا أخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما أعتقد ، ووضعوه فى شيء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين احدهما امامه والآخر من خلفه ، ثم القوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقـول خارج باريس ، فيما وراء حى « سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هنـاك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة » لم تستعمل بعد أعـدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة أحجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم أخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له اية فرصة ليلتقط أنفاسه ، ثم قطع راسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعمال العدالة الكبرى»، فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العــدالة قد انحطت حتى اضحت حيلا وخططــا فياللشناعة !

ان الشخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شيء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففى الصباح ، نادى المنــادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام فى شوارع باريس وميادينها .. ويبدو أن هناك اناسا يعيشون من بيع هذه الاشــياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل فى وسعكم ان تتخيلوا شيئا اكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذى يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية أكثر مما ينبغى .. أليس هــذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به ان تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقى عليكم هذا السؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كى تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لالشىء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل فى كل شيء . وان هناك آخرين لايحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا

ممن يهاجمونها ، فهى بالنسبة اليهم مسالة كلام ... مسألة اشخاص .. مسألة أفراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم كمثل « جوزيف جريبا » فى معارضته « لفيلانجييرى » ، وكمثل « توريجيانى » فى نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل «سكوديرى» فى تحديه للكاتب المسرحى « كورنى »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام ان عقوبة الاعدام امر ضرورى ، أولا : « لان من الضرورى أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسيء اليه بعد ذلك » . فاذا كان الامر مقصورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ اتفترضون انه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة . فان كنتم لاتثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب ان يثار لنفسه وأن يعاقب . » كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شيء

فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام اقل منه . الاول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية ، وكلاهمـا لا يلائمه . ومن واجب المجتمع الا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصلح ليصـل الى ماهو احسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل :

« يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظـر المصير الذى ينتظر المجرمين ، نلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهـام فى « النيابات » الخمسمائة الموجودة فى انحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان !

حسنا .. اننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من ان يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو اردنا ان نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين ألف واقعة ، ذلك لأنها وقعت حديثا جداً ونحن نكتب ، منذ عشرة أيام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعدام رجل يدعى « لويس كامى » مباشرة ، وكان قد ارتكب جريمة حريق، حـدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصـوا حول المشـنقة وهى لاتزال ساخنـة ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم ان تكونوا مرعبين حقا ! أعيدوا مختلف أنواع التعذيب. .أعيدوا الينا « فارنياتشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصـال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! أعيدوا لنا عند كل ناصية فى شـوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! أعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجـرية الست عشرة ، وجـلاديها الجالسـين و « بدروماتها » المملوءة بالعظام ، والواح التعذيب الخشبية ، و « كلاباتها » ، وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة ! ! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشـمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس ! ! أعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قـوته

وسطوته واستمراره وجبروته ! .. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة !! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع ، وهـذا هو الشيء الشنيع المروع !

اوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا ــ وهى بلاد التجارة ــ يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل ايضا يتركونه معلقا فى حبل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى ان تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون بالقطران ، وذلك حتى لايضطرهم الأمر الى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فياله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شيء من المنطق ، فهو اكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل

ولكن انتم .. أصحيح انكم جادون حقا ، اذ تعتقدون انكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة فى ركن قصى مهجور من مشارف العاصمة ؟ قد يكون هذا مقبولا لو انه تم فى ساحة الاعدام ، وفى وضح النهار ! ولكن ، ان يحدث ذلك فى حقول ضاحية من ضواحى باريس .. فى « سان جاك » ؟ .. وفى الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذى يمر من هناك ؟ ومن ذا الذى يرى ذلك ؟ ومن ذا الذى يعرف انكم تقتلون رجلا فى ذلك المكان ؟ ومن

ذا الذى يشك فى انكم تضربون مثلا هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لاشجار الطريق طبعا !

افلا ترون اذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة ؟ افلا ترون اذن انكم تختبئون ؟ وانكم تخافون وتخجلون من فعلتكم ؟ وانكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين ان هذه هى العدالة ؟ انكم فى الواقع خجلون وجلون أيها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من انكم على حق ، وان الشك الذى لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وأنكم تقطعون الرءوس على سبيل « الروتين » ودون أن تعرفوا تماما ما تفعلون ! أفلا تشعرون فى قرارة أنفسكم أنكم قد فقدتم على الاقل الشعور الاخلاقى والاجتماعى برسالة الدم التى كان اسلافكم القضاة العتاة يؤدونها بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ أفلا تتقلبون على وسائدكم اكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير أنهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وانهم عدول وانهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد انه قاض ، و « ايلى دى توريت » كان يعتقد انه قاض ، و « لو باردومون » و « لارينيى » و « لافوماس » كانوا يعتقدون أنهم قضاة .. اما انتم .. اما أنتم فلستم موقنين تماما فى قرارة انفسكم انكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ضاحية « سان جاك » ، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ،

ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست أتردد فى أن أقول لكم : انكم تختبئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعدام قد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما ، وهذه كل مرافعات النيابة قد فندت فصارت رمادا . ان أقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج

انه لاينبغى اذن أن يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا ـ نحن المحلفين ـ برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته ، وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع . ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله الى لا شىء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا أيها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا أن نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الآخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية أخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب أنه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل أن يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن

يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العناية بأمر كرامته ـ يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الآخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج ، نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها ، مثل «بلار» ، و«مارشانجى» تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » أو « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الادبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بها كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، واسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشبه فى رقته أساليب الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمون الى مدرسة «دوليل» فلا تخشوا اذن أن يسمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ ان لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه أن يجعل الامر المفزع مقبولا ، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق

(١) أى سلة المقصلة التى يسقط فيها راس المحكوم عليه عند قطعه

فى اعداد هذه الخطبة التى ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة
أسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كى يحاصر راس متهم
فى أسوأ بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو «ينشر»
رقبة انسان بائس بمنشار قانون أسىء صنعه ؟ الم تلاحظوا
كيف ينقع ثلاثة نصوص أو اربعة سامة فى نبض من العبارات
البليغة ، كى يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت
انسان ؟ أفلا يحتمل ان يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه
فى الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ،وانه قد يكف عن
الكتابة بين آن وآخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدا
اهدا ، فسوف تنال عظمتك ! »

ومن ناحية اخرى ، فقد يكون رجل الادعاء هذا فى حياته
الخاصة رجلا شريفا ، وأبا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجامخلصا،
وصديقا وفيا .. الى غير ذلك مما تذكره العبارات الطيبة
المنقوشة على لوحات القبور فى مدافن « لاشيز »

فلنتأمل اذن ان يأتى اليوم الذى يلغى نبه القانون هـذه
الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء
على عقوبة الاعدام فى فترة معينة من الزمن

ويغلب على ظننا فى بعض الاحيان ان الذين يدافعون عن
عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولـكن ،
ضعوا اذن بعض الجرائم فى الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول
للمجتمع الحق فى ان يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ،
وهذه العقوبة انما هى اكثر العقوبات التى لايمكن اصـلاح

نتائجها واشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك ان امامكم امرين لا ثالث لهما :

فاما ان يكون الرجل الذى تقضون على حياته لا أسرة له
ولا اهل ولا روابط فى هذا العالم ، وفى هذه الحالة لا يكون قد
تلقى تربية او تعليما او عناية ما ، بنفسه او بقلبه .. فبأى
حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ اتعاقبونه لانه كان يزحف
فى طفولته على ارض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم
تعاقبونه اذن على العزلة التى تركتموه يهيم فيها على وجهه ،
وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذى لم يعلمه أحد
ماذا كان عليه ان يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطأه
ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما ان هذا الرجل ذو أسرة . فهل تحسبون عندئذ أن
الضربة التى تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وان أباه ،
وامه ، واولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فأنتم بقتله انمـا
تقطعون رقبـات أسرة بأسرها . فأنتم هنـا كذلك تعاقبـون
الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على اى وجه تقلبها
نجدها تصيب البرىء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذى له أسرة ، فسوف
يستطيع وهو فى سجنه ان يتابع العمل من اجل ذويه ، اذ كيف
يكون فى وسعه ان يعولهم وان يجعلهم يعيشون وهو راقد فى
قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون ان تأخذكم الرجفة فيما

سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، أعنى لقمة العيش ! ام هل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ . . آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فأنهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره الف فرنك ! ماذا ايها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا أيضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه اصحاب الحق فيه ؟ أو ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة اكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟

لقد سبق لنا أيها السادة ان اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال ، وهانحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة

وثمة شيء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟ وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شيء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين اكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح أمامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء . اما الآن ،

فما هو الامل الذى تضعونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟

ليست هذه من غير شك الا « أسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير انها فى نظرنا هى افضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة أخرى ان النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم »(١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى انجب « بيكاريا »

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث الغيت عقوبة الاعدام ، اخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، ان نجرب كل المحاولات ، وان نتخذ كافة الاحتياطات ، وان نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة اخرى ، فاننا لانريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل انواع العقوبات من أولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى

---

(١) تأليف « بيكاريا »

(٢) تأليف « مونتسكيو »

المقصلة ، مع ملاحظة ان الزمن يعتبر أحد العوامل التى تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا أن نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق . ولكن ، اذا استثنينا الغاء حكم الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة او بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد ارتكب ما ارتكب بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض أحكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « دبياكير » ، وهو خليق كذلك بأن نقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) othello فى المستقبل

ومن جهة اخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة الإعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلهـا المجتمع بأسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد اخذت احكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، واخذت تجنح تقريبا نحو شيء من اللين

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجته بسبب الغيرة المتأججة

والحنان ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال . انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجـلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لشيء عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التى التهمت عـددا ضـخما من الرءوس ــ آلة « فارمناتشى » و « فوجلانس » و « دولانكر » و « ايزاك لوازيل » و «أوبيد» و « ماشوه » ــ هذه الآلة قد بدأت تضمحل.. بدأت تهزل.. بدأت تموت ! !

هاهى ذى ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد ان ترد لنفسها اعتبارها .. ان شاربة الدماء العجوز قـد سلكت فى شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهى تريد منذ الآن ان تحيا حياة أفضل ، وان تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهى التى كانت قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن

(١) الدكتور « جيوتان » مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه

(٢) كناية عن ان المقصلة لم تقتـل احدا فى ذلك الشهر بعد ان صـدر الامر بأيقاف تنفيذ كل احكام الاعدام الى اجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ المترجم

(٣) أى بعملها الصالح فى شهر يوليو

تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها »

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلنقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصنوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيوتان » يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينة الى هذا العدد من أحكام الاعدام الرهيبة التى نفذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتازة ، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وها هو ذا بناء عقوبة الاعدام العتيد العتيق بأسره قد أخذ يتفكك ويتداعى

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء ، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شعب همجى يقبل ان يستضيفها

لقد كان البناء الاجتماعى يرتكز فيما مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقد ذهب سلطان الأساقفة ! » ...

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » .. والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول: « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا أن نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع ان نقول لهم : ان الوطن باق . اما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا ما نقوله لهم

ولا يحسبن احد ان النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد ، فسوف لاتتداعى عمد المجتمع الجديد لأن هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها . اننا سننظر الى الجريمة على أنها مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين سيحتلون أماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل أماكن ليمانتكم .. ان الحرية والصحة ستجتمعان معا

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار . وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعد أن كان يعالج بالغضب والانتقام

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا
فالاحسان يحل مكان الانتقام
والرحمة تحل محل القتل
وهذا كل ما نهدف اليه

فى ١٥ مارس عام ١٨٣٢

الفصل الأول

قضيتى

فى سجن « بيستر »

محكوم على بالاعدام !

آه ! هاقد مضت على خمسة أسابيع وانا أقيم وحدى مع هذه الفكرة ، وحدى دائما ، أتجمد رهبة لوجودها معى ، وأرزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . واقول « قديما » لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ،وكانت نفسى الغنية الشابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى ، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة

كان رأسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبملابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمسارح التى تغمرها الضوضاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم وكنت أستطيع أن أفكر فيما اريد فى اى وقت . . فقد كنت حرا !

أما الآن فانى أسير . فجسمى مكبل بالحديد فى زنزانة ،

ونفسى ســجينة فى فـكرة مروعة داميــة لا ترحم ! ولم
يعد لدى سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحد ويقين واحد:
انى محكوم على بالاعدام !

ومهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائمـــا ، الى
جوارى ، وكأنها شبح جهنمى من الرصاص يقف غيورا بمفرده
أمامى أنا البائس ، ويواجهنى وجها لوجه ، فيطرد عنى كل
تسلية ويهزنى هزا عنيفا بيدين فى مثل برودة الثلج كلمـــا
أردت أن أدير رأسى أو أن أغمض عينى . ان هذه الفــكرة
المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، فى الوقت الذى تريد نفسى
فيه أن تهرب منها ، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التى
توجه الى ، وتلتصق بى فى اسوار زنزانتى الكئيبة ، وتطاردنى
فى يقظتى ، وتتجسس على فى منامى المضطرب ، ثم تظهـر
مرة أخرى فى أحلامى فى صورة سكين !

لقـد استيقظت الآن فزعا بسببها وانا أقول فى نفسى :
« انه ليس الا حلما ! » .. حسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى
الثقيلتان متسعا من الوقت كى تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة
المحترمة مكتوبة فى هذا الواقع المروع الذى يحيـــط بى على
بلاط زنزانتى الرطب المبلل ، وفى ضوء مصباحى الليـــلى
الخافت ، وفى نسيج ردائى الخشن الردىء ، وعلى وجـــه
الحارس المظلم الذى كانت « زمزميته » تلمـع من خـــلال
القضبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتـــان
متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لى أن صـــوتا قد

همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس ،
وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثـــلاثة أيام . كان
اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من
المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما
تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت استعراضات
القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر
خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون
دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام

ولم أستطع أن أنام فى الليلتين الاوليين من أثر القلـــق
والرعب ، ولكننى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل .
وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل
فأعادنى الحراس الى زنزانتى حيث ســـقطت من فورى على
قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان . فكانت هـــذه
أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام

وكنت لا أزال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما أتى
السجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين
بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها
دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال الخشان ، لم يكن هذا كله كافيا
لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن
النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى
ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى ارهاب :

– قم اذن !

ففتحت عيني وانتفضت مذعورا لاجد نفسي جالسا على القش ! وفي تلك اللحظة ، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة في زنزانتي ، قطعة السماء الوحيدة التي كان يمكنني أن اراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصفر الذي يبدو شمسا للأعين ، التي الفت ظلام السجون .. لشدما احب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

– ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذي أمامه يستحق منه ان يقول له اية كلمة ، ثم غمغم يقول فجأة في شيء من الجهد :

– هذا محتمل

وبقيت بغير حركة ، وروحي نصف نائمة ، وفمي يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبي الرقيق الذى كان يزين السقف

وعدت أكرر قائلا :

– هذا يوم جميل

فأجابني السجان قائلا في حزم :

– نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتني هذه الكلمات القليلة ، التي تشبه الخيط الذى يقطع طيران الحشرة ، في عنف الى عالم الحقيقة والواقع .

وفجأة رأيت في مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يميني وشمالي ، والارواب السوداء تتحرك هنا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة في الظل ، واعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين سهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسناني تصطك ، ويداى ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسي ، وكانت ساقاى متخاذلتين ، لا تقويان على حملي ، فتعثرت عند أول خطوة خطوتها وكأني حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان

وكان الجنديان في انتظاري على باب الزنزانة . وما كدت أخرج منها حتى وضعا في يدى قيدا حديديا له قفل صغير معقد ، اقفلاه في عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدى آلة توضع فوق آلة

واجتزنا فناء السجن الداخلي ، فبعث هواء الصباح المنعش في أوصالي شيئا من النشاط ، ووجدت نفسي ارفع راسي الى أعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت أشعة الشمس الدافئة التي تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعـده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى إنتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيه الضوضاء ٠ كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات

وما كدت أبدو حتى حـدثت ضوضـاء صـادرة من قعقعة الإسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين ، وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا ٠ وكان يبدو لى وأنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجوه المتيقظة المشرئبة نحوى

ولاحظت فى تلك اللحظة أنى لم أكن مكبلا بالحـديد ، لكنى لم أستطع أن أذكر أين أومتى كانوا قد نزعـوا عنى قيـدى ؟

وساد عندئذ صمت عميق ٠ وكنت قد وصلت الى مـكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت أيضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى ، وفهمت من فورى فى وضوح مالم أكن أتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحـظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت وأنى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم،فان الطريقة التى أوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت النوافذ مفتوحة على مصارتيعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج

دون حائل ٠ وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النـوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران

وكان القضاة جالسين فى نهاية القاعة وقد إرتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء ٠ وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ أحد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسـها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يمسك بياقة روبه ويعبث بها

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههـم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهـم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يـكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيهـا ، كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصـيف نهر «السين» ، وعلى حافة ركن النافذة ادهشتنى رؤية نبتة

صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن أفكر فى شيء آخر غير الحرية ٠ ان الامل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وأنا مطمئن كما ينتظر المرء الخلاص والحياة

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره ٠ وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتسما وهو يقول :

ـ اننى آمل

فأجبته فى خفة وأنا أبتسم أيضا :

ـ أليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ـ نعم ، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هناك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة

فأجبته قائلا فى سخط :

ـ ما هذا الذى تقول يا سيدى ؟ ٠٠ انى أوثر الموت مائة مرة !

نعم ٠٠ الموت ! ومن ناحية أخرى ، فان صوتا داخليا لا أعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى أتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟ .. ولكن .. فى شهر أغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين ٠٠ كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجأة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى ٠ ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل أعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لامنع نفسى من السقوط

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ـ هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت أستطيع انا أن أقول الكثير ، غير ان ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شيء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقى

ونهض محامى الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الأخرى التى كنت قد احسست بأن كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشىء يأمله

ولابد ان سخطى كان شديداً بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكرر للمحامى فى صوت مرتفع ما كنت قد قلته له من قبل :

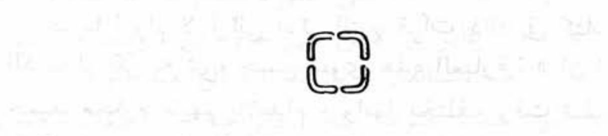
« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير أن انفاسى تقطعت ، ولم أستطع الا ان أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وانا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامى بكل قواه ، فكنت أستمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » ..

وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار ، بينما كنت أسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت اشعر حتى صدور الحكم بأننى أستنشق الهواء ، وبأن قلبى ينبض ، وبأنى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل

بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شىء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيها من قبل : فهذه النوافذ العريضة المضيئة ، وهذه الشمس الجميلة الحانية ، وهذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا فى عينى ابيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالأشباح !



فى العربة السوداء

وكانت هنـاك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. والقيت وانا اصعد اليها نظرة عابرة على الميدان ، فرايت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت ان اميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى انها تفصل بينى وبين الأشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغـراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

انا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى اذكر أننى قرات ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شيء حسن سوى هذه العبارة : « ان البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيـذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيرا اذن فى موقفى ؟

كم من اناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى راسى وهو يهوى فى ساحة الاعدام ! وكم من هؤلاء

الناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقنى كذلك الى عالم الموت !

ثم .. على أى شيء اندم فى الحياة ؟ اهو اليوم المظلم ؟ أم هو الخبز الأسود فى الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذى يلقى الى فى الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملنى بهما السجانون والحـراس ، وانا الذى ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ أم هو حرمانى من رؤية اى مخلوق آدمى يعتقد انى استحق ان يبادلنى الحديث ؟ أم أن أرتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه بى ؟ أليس هذا تقريبا هو كل الخير الذى يستطيع الجلاد أن ينتزعه منى ؟

آه ! ولكن هذا لا يهم .. انه شيء فظيع !

نقلتنى العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، فى سجن «بيستر» البشع ، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر فى الأفق على جبهة تل ، ويحتفظ بشيء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التى سقطت تحت مستواها الأصلى تجرح بمنظرها العين ، ولست ادرى اى شيء حقير مخجل لطخ واجهـاته الملكية بالقـذارة ، اذ تبدو كأن جدرانها مصـابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بهـا زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه

لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون !
انها الحياة من قرب !

العودة الى بيستر

ما كدت أصل الى سـجن « بيسـتر » حتى تلقفتنى أيد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليه فحسب ، وهو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قد استأنفت الحكم،وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة أسابيع الى سبعة أسابيع غالية الثمن ، وكان من المهم ان يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الأيام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبا مفزعا ، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم ما لبثوا ان تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كما يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا امامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرأ على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعناية قسيس السجن بأمرى،وبوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التى كنت اوجهها الى البواب فلا يفهم من امرها شيئا ، كل ذلك قد فتح

لى باب النزهة مرة فى كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذى كان يشـــل حركتى .
كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير

وكانوا يطلقوننى فى كل يوم أحد بعد القداس فى فناء السجن ساعة الفسحة حيث اتبادل الحديث مع المسجونين ، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين اناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهى أمور ترسل فى الجسم رعدة قاسية ولكنى كنت اعلم انهم يفاخرون

وكان هؤلاء المسجونون يعلموننى أن اتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهى لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسنط فى الجســـد ، لبعض الفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشى على العنب الأحمر » ، ويعنون به أن الدم فى طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة » ، ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة أرملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين !

ان راس اللص له فى السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفى بعض الأحيان ، تكون ألفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة (انفودفيل) ، كقولهم : « شال من خيزران » (عربة « الزبال ») .. و « الكاذبة » (اللسان)!

وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة

وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا أدرى من أين تخرج ، مثل : الدرع (الجلاد) ، و «الخازوق» (الموت) ، و «الصندرة» (ساحة الاعدام)! .. ألفاظ تبدو لى كالعناكب والابرأص ، حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشيء القـــذر المغبر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض أمام عينيه

ومهما يكن من شيء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالى ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ أن السجانين والحراس — ولست احقد عليهم — يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شيء يمت الى عالم الجماد !



الفصل الثانى

أيام لن تعود

مذكراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا اكتب ما دامت لدى أدوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا اكتب ؟ اننى سجين بين أربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البـــارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا أفق يمتـــد أمام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا ان اتتبع بطريقة آلية ما يجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه امامى مبـاشرة على الحــائط المظلم ، وكما كنت اقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما اقوله وانا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ وماذا عساى ان اجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟

اذا كان كل شىء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، افلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستعر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى امامى فى كل ساعة وفى كل لحظة فى شكل جديد ، وهى تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد

ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا احاول ان اقول لنفسى كل ما احس به ، واقص عليها ما اكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرنى فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرنى فى موقفى هذا الميئوس منه الذى اجد نفسى فيه الآن

ان الموضوع غنى ما فى ذلك شك ، ومهما بدا لى ما تبقى من عمرى قصيرا فسوف يكون فى الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذى يملؤه منذ هذه الساعة الى ان تحين ساعتى الاخيرة ، مايكفى لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله . ومن جهة اخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التى استطيع بها ان اخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هى ان الاحظها ثم اصفها ، فهذا خليق بأن يسرى عنى بعض التسرية

وفوق هذا ، فان ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التى تسجل آلامى ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو انى وجدت فى نفسى القدرة على تدوينها حتى اللحظة التى سوف يستحيل على جثمانيا ان اتابع كتابتها — اذ ان قصة مشاعرى هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وان كانت كاملة من حيث طاقتى — هذه المذكرات الن تحمل فى طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ الن يكون فى هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التى تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلى لانسان محكوم عليه بالموت .. الن يكون فيه اكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هذه المذكرات اقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروى فى المستقبل عندما يكون الأمر متعلقا باسقاط راس يفكر ، راس انسان ، فيما يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط فى هذا التتابع البطيء لألوان العذاب التى تنطوى عليه هذه الصيغة الموجزة التى ينطق بها فى استخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة واحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الأليمة ليروا ان فى هذا الانسان الذى يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وان فيه روحا لم تكن تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون فى هذا كله الا سكينا مثلثة الشكل تهوى راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك انه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم انهم مخطئون ، فقد يتاح لها ان تنشر فى يوم من الأيام ، فتفتح اعينهم لحظات على آلام النفس التى لا يشك فيها احد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة فى انجاز مهمتها الدامية ، غير أن هذا ليس كل ما فى الأمر ، اذ ما قيمة الألم البدنى اذا قيس بآلام النفس ؟

اننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التى تتحرك أنفسنا شفقة بها ،وسوف يأتى يوم تكون فيه هذه

المذكرات ، وهى الأسرار الاخيرة لانسان بائس ، قد اسهمت فى هذا المضمار .. اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر

وسواء أكان ما اكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيرى ، ام انه اوقف القاضي وهو يهم بالنطق بالحكم ، أم انقذ البائسين من ابرياء ومذنبين ، انقذهم من الاحتضار الذى حكم به على .. فلماذا كل ذلك ؟ .. وما فائدته ؟ .. وما أهميته ؟ .. ماذا يهمنى ان تقطع رءوس اخرى بعد أن يكون راسى قد قطع ؟.. هل استطعت حقا أن أفكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى أن أقذف بالمقصلة على الأرض واهدمها بعد ان أكون قد صعدت عليها ؟ هل لى أن أسألكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة بعد ان اذهب ضحية لها ؟

آه ! ان الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالأزهار ، والطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والأشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة .. كل ذلك لم يعد لى منه شيء !

رباه ! .. انه انا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح أن هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟.. هل صحيح ان الامر هكذا ؟ .. يا الهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفكير فى تحطيم راسى على جدار زنزانتى

والآن ، فلنعد ما تبقى لى :

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض . وثمانية أيام من النسيان فى نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات ـ كما يقولون ـ الى مكتب الوزير . وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذى لايحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من امرها شيئا،ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا فى دوره ... ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح

وأخيرا ، تنعقد المحكمة عادة فى يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذى يرسلها الى النائب العام ، فيحيلها هذا الى الجلاد . ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام

وفى صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهى هذه المسألة ! » . وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالى صوت اقامة اخشاب المقصلة فى ساحة الاعدام ، ويصيح

المنادون العموميون عند تقاطع الشوارع وفى الأزقة فى صوت مرتفع مبحوح

كل ذلك يتم فى ستة أسابيع . ان الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن ها هى ذى خمسة أسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هـذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس

□

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. مافائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده . حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

اننى اترك ورائى اما ، وزوجة ، وطفلة !.. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رأيتها لآخر مرة

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا أب .. ثلاث يتيمات من انواع مختلفة .. ثلاث ارامل باسم القانون !

انى أوافق على ان اعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنـين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن .. انها العدالة !

وليس ما فى الامر أن أمى العجوز المسكين تقلقنى ، فسنها

اربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنها عاشت من بعدى لبضعة أيام فياليتها تجد فى مدفأتها لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا

وأمر زوجتى كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا اصابها مس من الجنون . انهم يقولون ان الجنون يطيل العمر ، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كأنها فى عداد الاموات

أما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « مارى » المسكين التى تضحك وتلعب وتغنى فى هذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

في الزنزانة

هذه هي زنزانتي :

ان مساحتها ثماني اقدام مربعة ، ولها اربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجي . وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجويف يقلد في سخرية صوان ملابس النساء الذي يوجد عادة داخل الجدران . انهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض أن يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدي سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء

وفوق رأسي كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ـ هكذا يسمونها ـ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب

كلا ، كلا .. انني مخطىء ، ففي وسط هذا الباب الى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل

وفي خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة في أعلى الجدار ، ومقسم الى اقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة . ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتي ، وفي هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تاديبية . أما الزنزانات الثلاث الاولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام لانها قريبة من مركز المراقبة ، ومن ثم فهي أكثر ملاءمة للسجان .

هذه الزنزانات هي كل ما تبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه في القرن الخامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذي قضى باحراق « جان دارك » .. انني سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ أيام ليروني في زنزانتي ، وكانوا ينظرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية في حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات

لقد نسيت أن أقول ان هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتي ليلا ونهارا ، وان عيني لا تستطيعان أن ترتفعا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام

وفيما عدا هذا ،فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان

الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالى فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحى من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والاشكال الغريبة ، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا . ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل . إنها كتابات بالقلم ، وبالطباشير، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة فى الاغلب حفرا عميقا فى الحجر . ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم

ولو أن نفسى كانت أكثر حرية مما هى فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عينى صفحة صفحة على كل حجر من احجار هذه الزنزانة ، ولكنت جعلت من هذه الشرائح من الافكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التى بدت لى كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشى المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة !» يا للمسكين ! ماتت أمانيه فى ريعان الشباب !

والى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتها وجه

مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيا الامبراطور .. » عام ١٨٢٤ »

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون : « اننى احب واعبد « ماتيو دنفان ـ جاك »

وعلى الجدار المقابل لسريرى ، وقعت عيناى على هذا الاسم: « بابا فوان » ،وكان حرف الباء الاول كبيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحت هذا مقاطع من اغنية بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشىء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ـ بوريس » .. انه كان أحد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل » ! ياله من شاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، نرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! .. وأنا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتكبت جريمة بمعنى الكلمة وأرقت الدماء !

اننى لن أذهب فى بحثى الى أبعد من هذا ،فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الأبيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربما كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !

وأندفعت عائدا لأجلس على القش ورأسى بين ركبتى ، ثم انقشع فزعى الصبيانى واخذتنى من جديد الرغبة فى

الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جدر الزنزانة

انتزعت من جانب اسم « بابافوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا فى زاوية الجدار ، فرايت تحته أربعة اسماء او خمسة من الممكن ان تقرا بسهولة من بين اسماء اخرى لم يبق منها سوى بقع على الجدار . اما الاسماء الواضحة فهى : « دوتان » عام ١٨١٥ – « بولان » عام ١٨١٨ – « جان مارتان » ١٨٢١ – « كاستانج » عام ١٨٢٣

وما كدت اقرا هذه الأسماء حتى انتابتنى ذكريات مظلمة : اما « فدوتان » هو الذى قطع اخاه اربا اربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقى براسه فى نافورة وبجذعه فى المجارى ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتان » هو الذى اطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . اما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه فى مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بأن كان يعطيه السم على انه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين فى الراس ! !

قلت فى نفسى : هاهم أولاء من اقاموا من قبلى ضيوفا ن هذه الزنزانة ! واحسست برجفة من الحمى تسرى فى كليتى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى اجلس عليها . جالت فى أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، افكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار ، وفى هذا المربع

الضيق ، كخطوات حيوان كاسر • لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى أنها لم تخل أبدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى انا ، وسوف أذهب بدورى لألحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة ايما غزارة !

لست أتنبأ بالغيب ، ولا أعتقد فى الخرافات ، ومن المحتمل ان هذه الأفكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجأة وانا احلم على هذه الصورة ، ان تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى اذنى رنين قوى اخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلأت عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى ان الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال اشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها .. وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل ابيه !

واطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرايت عندئذ كل شىء فى وضوح اكثر ، وسواء أكان ما رايته حلما ام رؤيا أم حقيقة ، فقد كنت خليقا بأن اجن .. لولا انى احسست بشعور مفاجىء ايقظنى من هذا الكابوس فى الوقت المناسب ، وكدت أقع على ظهرى عندما شعرت ببطن بارد ، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العاريتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن أزعجته

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويا لها من أشباح مرعبة ! كلا ، انهـا كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد اغلقت عليهم القبور جيـــدا بالاقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن انى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط

مشهد رهيب

رأيت فى هذه الأيام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطالع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى أحزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، واصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانة ، وهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، اكثر مرحا من المالوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » بأسره انه يضحك ويغنى ، وانه يلهو ويرقص

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدى حراكا وسط هـذه الحركة الدائبة . كنت أصغى فحسب ، أصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه ، وسألته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فأجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلو غدا الى سجن «طولون» أتريد أن تشاهد ذلك ؟ انه سوف يسليك »

وكان هذا المنظر فى الواقع ـ مهما بلغ من بشاعته ـ فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فتقبلت هذه التسلية

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن من ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنهانافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكىء على حافتها ، وان يرى السماء من خلالها بالفعل

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! »

ثم خرج الرجل بعد أن اغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والأقفال والمزاليج

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ما هو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التىالتصقت بها ـ من أسفل البناء الى أعلاه ـ مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها احجار فى جدار ، يحيط بها جميعا ـ ان صح هذا التعبير ـ اطار من قضبان النوافذ الحديدية . كان هؤلاء هم السجناء ، قد اخذوا يشاهدون هذا الحفل ، فى انتظار ادوارهم حين تحين

ليصبحوا هم الممثلين . ان المرء ليخيل اليه انهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الأعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة

ان « مربع السجون » الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد اضلاعه الاربعة (الضلع الذى يطل على جهة الشرق) مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من أعلى ليغلق به المصباح

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجاة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا أزرق ، وعلى أكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والأغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الآذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين ، وقد بدت مكفهرة مكشرة عن أنيابها ، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ، ولمعت كل الأعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس ، نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد احدهم فوق العربة والقى الى رفاقه بالأغلال الحديدية ، وأطواق السفر ، وحزم السراويل المصنوعة من التيـــــل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم « الدوبارة » ، أما الآخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان اكثرهم فراسة يفحصون الاطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء ، تحت مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها

بحكها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على أصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك يعد من اجلهم ، وهم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير

وما ان تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى امرا الى مأمور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان و ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزارون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم — وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان — بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع المزوج بالفخر ، وكان اكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات اكثر شدة وحماسا ، بل ان احدهم بصـــفة خاصـــة — وهو شـــاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة — قد اثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان

يغطيه من راسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور
حول نفسه فى خفة لا تحاكيها الا خفة ثعبان ، فثارت
بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور .
وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يردون على ذلك من
ابراجهم ، فكان هذا التجاوب فى المشاعر وتبادل المرح بين
المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين
زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا . ومهما
كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى
عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظةوجها
لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا

وكلما وصل سجناء آخرون، كانوا يدعونهم بين صفين كثيفين
من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث
كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهدا
أخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الأعذار الصحية : فهو
اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما أنه يعرج بساقه ،
لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الأغلب الاعم صالحين لليمان ،
فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسيا فى
دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى وأخذ أحد الحراس
ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجدية ،
فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحدا واحدا ،
وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير

الى جوار زميل له ،جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به.
وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه ، وكان كل
واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص
مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ،
فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لاسبيل
الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ،
ثم صفهم أحد الجنود صفا بعصا فى يده ، وألقى أمام كل
واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم
أشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ،
غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد
اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال الى عذاب

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم
شهر أكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن
لآخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها
شعاع من الشمس . ولكن ما كاد المحكوم عليهم بالأشغال
الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن البالية
ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين
الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا
أكتافهم ، حتى أظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار
الخريف التى تشبه السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد
وأغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم

التعسة الملقاة على الأرض
وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تماما من كل شخص لم يكن سجانا أو سجينا ، وهرع فضوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقةفى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصاخب فوقفوا يرتجفون ، وأخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك الستر والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشىء من المرح ، فصاح قائلا وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل : « ان هذا لم يكن ضمن البرنامج ! » ثم أغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعها أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى

طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة» فى أحد جوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته » بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدة الرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كأنها هيكل عظمى لسمكة ضخمة

وأجلس السجناء فى الوحل على الارض الغارقة فى الماء وبعد أن قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلك الاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظة رهيبة اصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة ! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود الى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتى بها السجين من الامام الى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم السجناء وأظلمت وجوههم ، ولم يعد يسمع الا صليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة أطل على الفناء وأنظر فى رعب الى كل تلك الصور المحزنة فى اطارها الحديدى

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ، وأعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد أشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، واخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة . وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحث فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فلن أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم أحضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب ـ لست

أدرى ما هو ـ فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ما هو كذلك ، فأخذوا يأكلون

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفناء ثم عادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو انهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليلة التى تليها

ومكثت أرقب هذا المشهد الغريب فى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أنى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق أحشائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع

وفجأة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليه بالاعدام ! .. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقد كنت أجهل من أين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة : « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة سنا ، وكان وجهه خشنا لامعا جامد الملامح ، نظر الى

نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحــظ !
فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور فى نفسى .. اننى
كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان
« طولون » ، بل انى كنت فى درك أســفل منهم ! .. انهم
كانوا يشرفوننى ..

واجتاحتنى رجفة عاتية .. نعم ، أنى زميل لهم ومن الممكن
ان أصير ـ أنا نفسى ـ بعد أيام مشهدا يملأ عليهم أبصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى
وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رايت ســجناء السلاسل
الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهــم
يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضــجيج
قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم
تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة
من الشــياطين كانت تتسلق البنــاء الى زنزانتى التعسة ،
وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب والقيت نفسى
عليه بكل قواى كى أحطمه ، لكنى لم أجد سبيلا الى الفرار ،
فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج .. وعدت أحــاول
اقتحام الباب ، وأنا أنادى وأصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ
أنى كنت أسمع أصوات السجناء المخيفــة تقترب منى أكثر
فأكثر ، وظننت أنى أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة
نافذتى ، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا
على .

اللحن الحزين

وعندما افقت من غشيتى كان الليل قد اقبل ، ووجدت
نفسى راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته
قرب السقف مكننى من ان ارى « ابراشا » أخرى مرصوصة
الى جوار « برشى » عن يمين ، وعن شمال ، فأدركت أنهم
نقلونى الى مستشفى السجن

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد
احسست بسعادة غامرة لانى نائم على سرير . وليس ثمة شك
فى أن سرير المستشفى هذا كان خليقا فى اى ظرف آخر بأن
يجعلنى أفر منه شفقة واشمئزازا ، غير انى كنت قد اصبحت
شخصا آخر .. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة
الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت أشعر بقش الزنزانة من
خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان
فى وسعى ان أبسط اطرافى كما يروق لى فوق هذه المــلاءة
الرخيصة وتحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت احس
رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذى كان ينفذ حتى نخاع
العظام ، والذى كنت قد الفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة
اخرى للنوم

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت
فجرا . كان الصــوت يأتينى من الخــارج ، وكان سريرى

بجوار النافذة ، فنهضت وجلست فى الفراش لاستجلى مصدر
هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن « بيستر » ،
وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن
القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح
عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ، وبين هذين الصفين
من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم
فى بطء وهى تتعثر عند كل « بلاطة » .. كان هؤلاء الرجال
هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر
رحيلهم

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة
بمجموعة من السجناء تربطهم احدى السلاسل الطويلة الخمس،
وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل
بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى
كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر
بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع
عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء
ترى وهى تقفز ، وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل السجناء
الرمادية المصنوعة من التيل والتى كانت قد اسودت ، يجعلها
تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطويلة ومن
شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون

وكنت اراهم وهم يرتجفون وقد اخذت اسنانهم تصطك من
البرد والغضب

وكان هؤلاء السجناء من جهة اخرى عاجزين عن الحركة ،
اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لايصبح الا جزءا
من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك
كأنها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ أن ينمحى ، فطوق
اليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ،
اما الحيوان نفسه (١) فيجب الا تكون له حاجات أو شهية
للطعام الا فى ساعات محددة

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد اصبحوا
شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وارجلهم معلقة فى الهواء . كانوا
يبدءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة
وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس
الثياب ، تحت وهج الشمس المحرقة وتحت امطار نوفمبر
الباردة ، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون ان تشاركهم
السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب :
سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ، وشكاوى وشتائم
من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (٢) حتى

(١) يعنى الناحيـة الحيوانية فى السجين أى البدن ومطالبه
(٢) الكابتن قائد حرس السجن

رايت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال
على العربات الخمس فيفرق اكتاف السجناء أو رءوسهم بلا
تمييز ، فعاد كل شيء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء
الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء
تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف
ظاهر

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها
فرسان البوليس وجنود السجون المشاة ، واحدة بعد أخرى
تحت ذلك الباب المرتفع ذى «القبوة » ، باب سجن « بيستر»
وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والأوانى النحاسية
والسلاسل الاحتياطية (١) .. وكان نفر من السجانين قد
تأخروا قليلا فى المقصف (٢) فخرجوا مسرعين ليلحقوا
بالعربات

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال
عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات
الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل
على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل
السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى
سفرهم كل المصائب والنكبات

(١) سلاسل واطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء
(٢) « كانتين » السجن

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بدايةفحسب!
فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ .. الأشغال الشاقة
المؤبدة ! .. آه ! ان الموت خير عندى ألف مرة ! إنى أفضل
المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، وأوثر أن أسلم
رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أسلمها لطوق
السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟ ! .. رحماك أيتها السماء
العادلة !

■

لم أكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى
الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية
اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قوى ، أستمتع
بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل أعضاء
جسمى تطيع سائر نزواتى .. أنا قوى الجسم والروح ،
وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا .. نعم ، ان هذا كله
صحيح .. ومع ذلك ، فانى مصاب بمرض آخر ، بمرض
مميت من صنع يد الانسان

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فكرة مؤلمة،
فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت
الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى ، فهؤلاء الأطباء

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة

والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى .. اننى سوف أموت
هكذا وأنا بعد شاب صغير السن .. سوف أموت مثل هـذه
الميتة الشنعاء !

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كانوا يحومون
حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى .. آه ! صمتا أيها التعس!
.. فهو مجرد حب استطلاع فحسب .. وفوق هذا ، فهؤلاء
الاشخاص وان حاولوا انقاذى حقـا من الحمى ، فليس في
استطاعتهم أن ينقذونى من حكم الاعدام ! ..
ومع ذلك ، أفليس الأمر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك
مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن .. ان طلب
الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لأن كل شيء قد سار
طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشهود شهادة كاملة ، وترافع
المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى
لا اعول على الاستئناف ، اللهم الا .. كلا ، كلا .. ان هـذا
ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! فطلب استئناف الحكم
ليس الا حبلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتسمعه
وهو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما .. انه
كسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ستة أسابيع !

آه لو صدر عفو عنى ! .. عفو ؟ ! .. من ذا الذى سوف
يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ .. من المحال أن يصدر العفو عنى،
كل ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون

لم تعد هناك أمامى سوى ثلاث خطوات أخطوها ، ثلاث
فحسب : سجن « بيستر » .. ثم سجن « الكونسيير جورى »
.. وأخيرا ، ساحة الاعدام !

□

وكنت قد جلست فى الشمس بجوار النافذة خلال
الساعات القليلة التى قضيتها فى المستشفى .. ان الشمس
قد عادت الى الظهور ، أو على الأقل ، كنت أتلقى من أشعتها
كل ما كانت تسمح لى به منها قضبان النافذة الحديدية

جلست هناك وقد وضعت رأسى الثقيل المحموم بين يدى
اللتين كانتا لاتقويان على حمله ، واسندت مرفقى الى ركبتى
وقدمى الى قضبان مقعدى ، لأن الانهاك كان قد بلغ منى مبلغا
جعلنى انحنى وانثنى على نفسى كما لو كنت جسما لم تعد فى
اوصاله عظام ولا فى لحمه عضلات

وكانت رائحة السجن التى تزكم الانوف تخنقنى أكثر من
اى وقت مضى ، وكانت اصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة
بصليل سلاسلهم لاتزال تطن فى أذنى ، وكنت اقاسي كللا
كبيرا فى سجن « بيستر » ، حتى انه كان يبدو لى أن الله فى
عدله ورحمته سوف تأخذه الشفقة بى فيرسل الى طائرا
صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامى على حافة هـذا السقف
الاردوازى المنحدر

ولست أدرى ان كان الله الرحيم هو الذى استجاب عندئذ
لدعائى أو انه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت فى نفس اللحظة

تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتى ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وانما كان اجمل من ذلك بكثير .. كان صـوتا نقيا ، صـوتا نضرا شجيا لفتـاة فى الخامسة عشرة .. فرفعت راسى فجاة كانسان ادركه الفزع ، واخذت أستمع فى نهم الى الاغنية التى كانت ترددها الصبية فى نغم بطىء حزين كانه هديل الحمام .. فجاءنى صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك فى شارع « ماى » ..

حيث اعتدى على قهرا ثلاثة اشقياء ..

ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم أستطع ان اعبر عن مدى مرارة الصدمة التى احسست بها فى تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول :

لقد هجموا على وطرحونى ارضا

ومر شاب من حينا مصادفة

فقلت له : اننى فى محنة ..

فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !

فقال لى : « انى هززت شجرة البلوط

ونزعت منها كثيرا من الاغصان »

فأوسعهم ضربا حتى تركونى

وفررت وحذائى ممزق ، وكذلك ملابسى

لسوف أرقص مع هذا الفتى فى يوم العيد

ولم يسبق لى أن سمعت هذه الأغنية من قبل ، وكنت لا أستطيع أن أسمع المزيد من كلماتها التى كانت تحمل بين طياتها شكوى

مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتاة كذلك اغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجال البوليس ، وتتحـدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالة الرهيبة : « انى قتلت رجلا وقبض على » ، واغنية أخرى (١) جاء بها : ان سيدة ذهبت الى قصر « فرساى » لتشـكو مجرما الى الملك ، وان صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : « سيجعله يرقص دون أن تكون هناك « أرضية » تحت قدميه ! »

كانت الصـبية تردد كل تلك الاغانى فى نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفى صوت لم تسمع أذن امرىء قط أشجى ولا أعـذب منه ! حتى اننى جمـدت فى مكانى محطما مبهوتا تغمرنى الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة !

وما انا بمستطيع ان أصور ما كنت أشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا فى آن واحـد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات الرنة الكئيبة والطابع العامى (٢) التى امتزجت بصوت فتاة يافعة فى فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امراة ، كل تلك الالفاظ رديئة

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها فى أبيات موزونة ومقفاة كما وردت فى النص الفرنسى

(٢) اللهجة الشـائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة أو الجاهلة

الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة .

آه ! ما اشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى اغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير ، وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تأذيت من رائحتها البغيضة

آه لو كنت استطيع الفرار ، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما اوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغى أن اجرى وقتئذ ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل ان الامر على انعكس ؛ اذ يجب على أن أسير فى تؤدة وانا أغنى مرفوع الراس .. يجب ان احاول جاهدا ان احصل على قميص عتيق مفتوح أزرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ ان كل بائعى الخضر فى الضواحى يلبسون مثل ذلك

انى أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفاقى لصيد الضفادع فى يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وسوف أختبىء هناك الى أن يهبط الظلام ، ثم استأنف سيرى تحت جنح الليل كى اذهب الى « فانسين » .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بينى

(١) مكان فى ضواحى باريس

وبين المضى قدما ، سوف أيمم آذن شطر « أرباجون » — وسوف يكون من الاوفق أن اتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم اذهب الى « الهافر » (١) واستقل اية سفينة الى انجلترا — ولكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذلا آكاد اصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى ان أبرز بطاقتى الشخصية ! .. اننى هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يا لى من حالم بائس ! على اذن ان أحطم الجدار أولا .. أن أحطم الجدار الذى يسجننى وسمكه ثلاث أقدام !.. الموت يا الهى !.. الموت !

عندما أفكر فى أنى أتيت الى هنا ، الى « بيستر » ، وأنا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة ... والمجانين آه !

□

وفيما انا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحى وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة

ما معنى ذلك ؟ .. ان حارس زنزانتى النوبتجى دخل لتوه عندى وخلع قبعته ، ثم حيانى معتذرا عما سببه لى من ازعاج ، وطلب منى أن أعين له ما أريده طعاما لفطورى ، طلب منى هذا ، وهو يحاول جاهدا ان يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف

فاجتاحتنى رجفة عاتية ، وهمس فى أعماقى صوت يقول :

(١) ميناء فرنسى على بحر المانش

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتى وسألنى كيف يستطيع ان يرضينى وكيف يمكن ان يكون نافعا لى فى اى شىء ، وعبر لى عن امله فى الا تكون لدى اية شكوى منه او من مرءوسيه ، ثم سألنى فى اهتمام عن صحتى ، وعن الحال التى قضيت فيها الليل .. وخاطبنى بقوله : « ياسيدى » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هذا السجان لا يعتقد ان لدى شكوى منه او من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعنى الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسونى خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولى وعند رحيلى .. افلا ينبغى اذن أن أكون راضيا مسرورا ؟

ان هذا السجان الطيب انما يمثل السجن مجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التى تمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شىء من حولى هو سجن بالنسبة الى ! انى أجد السجن فى جميع الصور والاشكال : اجده فى صورة الانسان كما اجده فى شكل القضبان او فى المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس

سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفى رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وانا فريسته ، وهو يحيطنى بمخالبه ويحتضننى بكل جوارحه وثناياه ، فهو يغلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على بأقفال من الحديد ، ويراقبنى بعينى السجان

آه ! يالى من بائس . ماذا سيحدث لى ؟ ماذا سيفعلون بى ؟



الكاهن

انني الان هادىء ، فقد انتهى كل شيء ، انتهى تمـاما ..
لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قد القتنى فيها
زيارة الطبيب . ذلك انى أعترف بأنى كنت لا أزال آمل ، أما
الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة أمل لى

وهذا هو ما حدث منذ لحظة :

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف ـ بل ان
ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ـ فتح باب زنزانتى
من جديد ودلف اليها شيخ أشيب الشعر ، يرتدى «ردنجوتا»
فاتم اللون . وفتح الرجل « الردنجوت » قليلا فرأيت ثيابه
البيضاء ، « وياقته » الناصعة . لقد كان قسيسا

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهذا أمر كئيب .
وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسـامة
عريضة ، ثم هز رأسه ورفع بصره الى السمـاء ، أعنى الى
السقف ، سقف الزنزانة ! .. لقد فهمت !

وقال لى رجل الدين :

ـ أأنت على استعداد يابنى ؟

فأجبته قائلا فى صوت مختنق :

ـ لست مستعدا ولكننى « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح
من كل أعضاء جسمى عرق بارد غزير ، وأحسست بصدغى
ينتفخان ، وامتلأت أذناى بالطنين

وكان الشيخ الطبيب يتكلم ، بينما كنت أترنح على مقعدى
كانسان نائم ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لى فى تلك اللحظة،
وأحسبنى أذكر أنى رأيت شفتيه تتحركان ، كما رأيت بريق
عينيه ، واهتزاز يديه

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى ، فأخرجنى صرير المزاليج
من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم أره من
قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل
نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتسـم على
وجه الرجل مسحة من حزن « رسمي » مصطنع ، هو نفس
الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان
يمسك فى يده ورقة ملفوفة

وقال لى الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ـ سيدى .. انى « محضر » من قبل محكمة باريس الملكية،
ويشرفنى أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام

فأجبته قائلا بعد أن ذهب عنى أثر الهزة الاولى ، واستعدت
حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسى فى الحاح،
وانه لشرف كبير لى ياسـيدى أن يكتب الى ، وآمل أن يثلج

موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور ، اذ يشق على أن أعتقد أنه ألح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ما عندك اذن يا سيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتغنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة . كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم . وأضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » . هل لك أن تتفضل فتتبعنى يا سيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير . وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا «المحضر» مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لايزال مواربا . آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

وأعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فأجبته قائلا :

ـ سأتبعك يا سيدى فى أى وقت تريد . انى رهن اشارتك!

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف أتشرف بالحضور لأصطحابك معى بعد نصف ساعة

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى .

□

يا الهى ! أما من وسيلة للفرار ؟ أية وسيلة كانت ؟ يجب أن أهرب . هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب ، من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن أترك لحمى على هذه الالواح ! يا للغضب ! يا للشياطين ! يا للعنة ! لسوف تلزمنى أشهر بأكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيدة ، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ساعة واحدة !



الفصل الثالث

الطريق إلى الموت

فى سجن « لاكونسيير جورى »

هأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى . وقـــال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى »

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون !

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها أنى سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت اشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكننى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات . والقيت نظرة أخيرة على سجن «بيستر» قبل أن أغادره – فقد كنت أحب زنزانتى هذه – ويؤسفنى أنى تركتها خالية ومفتوحة ، مما أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقـــد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون انهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنايات بصدد النظر فى أمره فى هذه الساعة

ولحق بنا الواعظ فى نهاية الدهليز ، وكان الرجل قد فرغ

للتو من تناول طعامه

وعند خروجى من الزنزانة ، أمسك مدير السجن بيدى فى عطف ، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بى شيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحنى هذا بعض الشيء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة فى الفناء الاول .. آه ! انها نفس العربة التى كانت قد نقلتنى الى هنا . كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة ، ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما فى مقدمة العربة ، والثانى فى مؤخرتها . وكانت العربة بأسرها شيئا بالغ القذارة ، أسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك

وقبل أن أدفن فى هذا القبر ذى العجلتين ، ألقيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران . كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة ، لا يزال يهطل فى هذه الساعة التى اكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعد أن أرحل عن هذه الدنيا

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا فى الماء والوحل ، وخامرنى ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور فى الوحل

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس فى القسم الامامى منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر فى المؤخرة ، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ، وهكذا كان هناك ثمانية رجال - اذا استثنينا سائق العربة - يحرسون رجلا واحدا

وفيما كنت اهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقول : « انى أفضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

اننى أفهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به فى سهولة وسرعة اكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ؛ وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه اكثر منه راحة ، وليس فيه ما يسليك ، اذ انه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التى تقع على كل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مجتمعين ، غير أن

الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون اكثر لذة للشاربين

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير، ثم خرجت الى عرض الشارع ، فأغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت احس فى ذهول بأنى محمول كأنسان فاقد الوعى ، لايستطيع أن يتحرك أو يصيح، ويشعر بأن اناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكأنها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف ، أو تحتك بصندوق العربة وهى تتنقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها، وقرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدولى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة أمامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن «بيستر!» « ملجأ الشيخوخة » . وكنت أقول فى نفسى : عجبا ! يبدو ان هناك اناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخاملة من الالم، وفجأة، تغير

المنظر الذى كنت اراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة فى اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العريض الى الطريق الرئيسى ، وأخذت أبراج كنيسة « نوتردام » تبدو لعينى باهتة زرقاء فى ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظرى على الفور . ذلك انى كنت قد اصبحت آلة مثل هذه العربة . واعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة أبراج « نوتردام » ، فقلت فى نفسى وانا أبتسم فى غباء : ان الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربة على صورة أوضح

واظن ان القسيس قد استأنف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وانا أستمع اليه فى صبر ، اذ كان يطن فى أذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا

وجلست أنصت فى صمت الى وقع هذا الكلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة ، فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر الفاظه من امامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشىء ، شأنها شأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض ، عندما هزنى فجأة صوت « المحضر » الموجز المتقطع — وكان جالسا فى المقدمة — اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ما هو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ، فلم يرد

عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الى دون انقطاع ، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع . فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته فى هذه المرة ، كى يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم اردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هى التى تجعل احدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت اريد ان اقول ؟ آه ! نعم ، قل لى ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد فى باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه اخيرا :

ـ كلا ، لم أجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك فى المساء . اننى حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم ، أوصى البواب بأن يحتفظ لى بالصحف حتى إقرأها عند عودتى فى المساء

ـ أوه ! من المستحيل أنك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت فى الحديث قائلا :

ـ احسب انى اعرف هذا الخبر

فنظر الى المحضر ثم قال :

ـ انت ! احقا ؟ اذن فما هو رايك ؟

فقلت له :

ـ انك محب للاستطلاع !

فاجابنى الرجل بقوله :

ـ لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رايه السياسى ، وانا احترمك الى حد أنى أعتقد أنليس لك رأى فى هذا الموضوع . اما انا فانى موافق تماما على اعادة تكوين الحرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية ..

فقاطعته قائلا :

ـ كنت اظن انك لا تعنى هذا الخبر

ـ وأى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول انك تعرف الخبر

ـ كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقال فى لهفة :

ـ خبر جديد ؟ وانى لك أن تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ما هو هذا الخبر الذى لديك اذن ياسيدى العزيز ؟ اتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل أنت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ أنبئونى بهذا الخبر من فضلكم . ما الذى حدث ؟ الا تفهموننى ؟ انى أحب الاخبار لانى أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا

وأخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا أرد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :

ـ حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

ـ أفكر فى أنى لن أفكر بعد هذا المساء !

ـ آه ! اهو كذلك ؟ . . هيا ! انك حزين اكثر مما ينبغى !
لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته

وسكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢)، وكان يرتدى قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا. أما فتيان مدينة «لاروشيل» (٣) فقد كانوا لايتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال

وصمت المحضر لحظة اخرى ثم عاد يقــول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهــم يحتقرون كل النــاس . اما انت ايها الشاب فانى أجــدك مفكرا حقا

فقلت له:

– أنا شاب؟. إنى أكبرك فى السن؟ ان كل ربع ساعة يمر يجعلنى أشيخ بمقدار سنة!

والتفت «المحضر» نحوى ونظر إلى فى دهشة تنطوى على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول:

– أوه! عجبا! أتريد أن تمزح؟ أنت أكبر منى سنا وقد أكون فى سن جدك!

---

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه فى الفصل الثانى وهو مجنون رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين فى رءوسهم . ورد ذكره فى نفس الفصل

(٣) ضباط صف اربعة أحدهم يدعى «بوريس» وقد أشرنا اليهم

فأجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا أرغب فى المزاح

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك بأية موجدة على

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت امامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبــات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمى الجندى فصاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! الست شقيا ؟ هاأنذا قد فقدت كل ما معى من طباق !

فأجبته قائلا وانا أبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ انى افقد اكثر مما تفقده انت

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بين أسنانه :

ـ اكثر مما أفقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف ابقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست ادرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قد وجه الى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس و « المحضر » ، فتركتهمــا

يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى

ولا شك فى انى كنت لا أزال مستغرقا فى التفكير حينما اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى أن ضوضاء المدينة صارت اكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة امام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشها موظفو جمرك البلدية واو أن العربة كانت تحمل خروفا او ثورا يساق الى المذبح لوجب ان تدفع من اجله مبلغا من المال ، غير أن الرأس البشرى لاتدفع عنه رسوم جمركية ، فمررنا

واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق « بلاطها » عاليا متتابعا الى حد أننى لم أعد أسمع أى شىء آخر . وكنت كلما ألقيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة ، بدا لى أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وان شراذم من الصبية كانت تعدو وراءها ، كما بدا لى انى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا فى ثياب مهلهلة ـ وأحيانا كليهما معا ـ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (1) كان المارة يتخطفونه ، ويفتحان فميهما

(1) سبقت الاشارة الى ان احكام الاعدام واوقات تنفيذها كانت تطبع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصفه المؤلف فى موضع سابق بأنه « صلدى » ملطخ بالدم

كأنهما يصيحان صياحا عاليا

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بناء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكونسييرجورى » . ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد ارسل فى بدنى برودة الثلج ، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها أخيرا أن ضربات قلبى على وشك ان تتوقف كذلك

واستجمعت أطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفين من الجنود . آه ! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى

□

وكنت اشعر بانى اكاد اكون حرا وعلى سجيتى طيلة اللحظات التى اجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا أمامى أبوابا منخفضة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز اخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، اما القسيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كانت لديه مشاغله

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير أن ينتظر

لحظة قائلا له ان لديه صيدا سيكون معدا للتسليم على الفوركى ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » فى نفس العربة . فقلت لنفسى ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليه الذى يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التى لم يتسع الوقت أمامى لاستهلاكها

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وسنقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هذا ييسر الامور

وفى انتظار ذلك ، وضعونى فى مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدى وأوصدت الابواب على فى احكام

ولست أدرى فيم كنت أفكر ولا كم من الوقت مضى على هناك ، عندما طرقت أذنى ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتنى من حلمى . فرفعت عينى وأنا أرتجف ، فعرفت أنى لم أعد وحدى فى هذه الزنزانة ، اذ كان معى رجل فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الرأس بعض الشىء ، ووجهه حافل بالتجاعيد . وكانت أعضاء الرجل قوية عريضة ، أما عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شفتيه ابتسامة مرة . وكانت هيئته تبعث على الاشمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التى لا تكاد تستر الا نصف جسمه

ويبدو أن الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن الى ذلك .

(١) يعنى محضرى التسليم والتسلم

آه لو كان الموت يأتى هكذا !

وأمعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد فى ضحكته التى كانت كحشرجة المحتضر ، وأنا نهب لمزيج من الدهشة والذعر

فقلت له أخيرا :

ـ من أنت ؟

فأجابنى الرجل قائلا :

ـ هذا سؤال عجيب .. أنا واحد منهم !

فأعدت عبارته متسائلا فى دهشة :

ـ واحد منهم ! ما معنى هذا الكلام ؟

ولاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه

فصاح قائلا وهو يضحك فى قهقهة مدوية :

ـ معناه أن السكين ستلعب برأسى بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو أنك قد فهمت الآن !

والواقع أنى شعرت فى تلك اللحظة بأن الدماء تغيض من وجهى وبأن شعرى يقف فى رأسى . لقد كان هذا الرجل هو خليفتى فى سجن « بيستر » الذى كانوا ينتظرونه هناك ، كان هو الرجل الذى صدر عليه اليوم حكم بالاعدام

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ـ ماذا تريد ؟ هذه هى قصتى ، قصتى أنا ، أنا ابن لرجل

بائس أتعب « شارلو » (١) نفسه ذات يوم للاسف فى ربط
الحبل حول عنقه ، وكان ذلك فى عهد المشنقة والحمد لله ، فلم
اكد أبلغ السادسة من عمرى حتى وجدت نفسى بلا أب ولا ام .
وكنت فى الصيف أتمرغ فى التراب على قارعة الطريق كى
يلقى الى بعضهم «صلديا» من خلال أبواب العربات . أما فى
الشتاء فكنت أسير حافى القدمين فى الوحل وأنا أنفخ فى يدى
المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاى تطلان من خلال
سروالى

وبدأت أستعمل يدى فى سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر
أنشل جيبا أو أسرق معطفا . وفى سن العاشرة كنت « نشالا » ،
وما ان بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصا ، فكنت أحطم
أقفال الحوانيت وأستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض على بعد أن
بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلونى الى الاشغال
الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شىء شاق ،
فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل
خبزا أسود ، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها ،
ويتلقى ما تيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى
جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وأنا الذى كان لى شعر
كستنائى جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة : خمسة عشر عاما انتزعت من عمرى

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد (كما يقال عندنا « عشماوى »)

انتزاعا ! وكنت فى الثانية والثلاثين عندما أعطونى ذات صباح
امرا بالافراج عنى من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتها
لنفسى خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل
خلالها ست عشرة ساعة فى اليوم ، وثلاثين يوما فى الشهر ،
واثنى عشر شهرا فى السنة . وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت
أريد بهذه السبعين فرنكا أن أصبح رجلا شريفا ، وكنت
انطوى تحت أسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها
تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين فى صحيفة
السوابق ! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة
صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان
لزاما على أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن أقدمها كل
ثمانية أيام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة
فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون
منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب
توصد فى وجهى اذا مررت ! ولم يشأ أحد أن يعطينى عملا ،
فأنفقت السبعين فرنكا على طعامى ، ثم كان على أن أعيش ،
فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان
تماما للعمل ، ومع ذلك فقد اقفلت فى وجهى كل الابواب . وعرضت
أن أعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات ،

(١) يقصد التزكية المسجلة فى وثيقة الافراج عنه اذ جاء بها :« أفرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب .... » .

وأخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا أفعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقى زجاجا فى واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى ، فلم أتمكن من أكل الرغيف ، وحكم على بالاشغال الشاقة مدى الحياة فى التجديف على المراكب ، وختموا كتفى بثلاثة أحرف من نار ، وسوف أريك هذا ان اردت . انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هأنذا قد عدت الى الليمان ، وقد ألقوا بى فى هذه المرة فى ليمان « طولون » ، ووضعونى مع المجرمين العائدين الى الاجرام . وكان لزاما على أن أهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامى الا أن أنقب ثلاثة جدران ، وأن أقطع سلسلتين ، وكان معى مسمار فى هذه المرة

واستطعت أن أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار . ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما ، ملابسنا حمراء ، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل . لقد اطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة . وكنت فى هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدى نقود كذلك

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم أن أكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس . فوافقت وأخذت أقتل لاعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب أو البريد ، واخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، وثالثة نهاجم تاجرا ثريا يمتطى جوادا ،

فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق ، اما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة ، ونحرص على ألا تبرز قدماه ، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التى دفناه فيها ، حتى لاتبدو الارض كأنها نبشت حديثا

وهكذا شخت وأنا مختبىء فى الاحراش ، انام وأنا التحف السماء واطارد من غابة الى غابة ، غير انى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل . إن لكل شىء نهاية ، وهى نهاية لاتختلف عن سواها

واطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت ـ وأنا أكبرهم سنا ـ فى مخالب هذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هذه الدرجة ، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد أمامى الا ان امر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ أنى بدات اشيخ حقا ولم اعد اصلح لاى شىء ! ان والدى قد مات شنقا وانا سوف اموت بالمقصلة . تلك هى قصتى ايها الزميل ! »

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وانا أصغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت اعلى مما كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

ـ يبدو عليك انك شجاع أيها الصديق ، فلا تكن جبانا أمام الموت . اتفهمنى ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما أريد أن اكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست ارغب بحق السماء فى استئناف الحكم ان ارادوا أن يعدمونى معك اليوم . ان نفس القسيس سيتولى امرنا معا ، ولا يهمنى ان احصل على مخلفاتك . هأنتذا ترى اننى ولد طيب ، أليس كذلك ؟ قل لى اذن ، الا ترغب فى صداقتى ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب منى ، فقلت له وانا ادفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدى

وما أن سمع الرجل اجابتى هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدى .. آه ! آه ! أنك ماركيز ! انك لماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقى ! انى بحاجة الى ان اخلو الى نفسى ، فدعنى وشأنى

ودفعته جدية كلامى الى التفكير فجأة ، فهز راسه الرمادى الذى يكاد يكون اصلع ، ثم حك بأظافره فى صدره ذى الشعر الكث الذى كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه :

ـ لقد فهمت . انك تفكر فى القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت فى نبرات صوته رنة خجل :

ـ انت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك فى شىء ! وسوف يأخذه السجن منك ، فأعطنى اياه فسوف ابيعه لاحصل على طباق

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت ارتديه ، وأعطيته اياه ، فأخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين راى اننى كنت ارتعد فى قميصى قال لى : « انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك ان تكون اكثر وقارا وانت فوق العربة »

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وادخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة

وذهبت عندئذ لاتكىء على الجدار ، ولن أستطيع ان أصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد اخذ يفحص « الردنجوت » الذى اعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى اخرى صيحات تدل على السرور ، ثم أضاف يقول : « ان جيوبه جديدة تماما ! والياقة ليست بالية ! سوف أحصل فى مقابله على خمسة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة اخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين :انا
الى الفرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة
التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين
الجنود الذين كان عليهم ان يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه !
يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا انا وهذا
السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، ياللشيطان ! ان هذا لم يعد
يروق لى الآن وقد اصبح معى ما استطيع به ان احصل على
الطباق ! »

▭

لقد اخذ منى هذا اللص العجوز « الردنجوت » لاننى لم
أهبه اليه فى الحقيقة ، ثم انه ترك لى سترته الكئيبة ، هذه
الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم اتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث او
بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان اكثر منى قوة ، ولو
أنى رفضت ماطلب لضربنى بقبضة يده الضخمة

آه ! حسنا ! نعم ، انه الاحسان ! لقد كنت ساعتها أفيض
بالمشاعر السيئة ، وكنت أتوق لان اخنق هذا اللص العجوز
بيدى ، أو أن أسحقه سحقا تحت قدمى !

انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، واحسب ان
مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا
غليظ القلب

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران أربعة ، بنافذتها
قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير من المزاليج والاقفال

وهذا أمر طبيعى

فطلبت منضدة ومقعدا وادوات للكتابة ، فاحضروا لى
ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظرة تطل منها
الدهشة وكأنه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ »

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركن الزنزانة ،
ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيما كانوا
يسمونه « غرفتى » ! ترى هل يخافون ان اخنق نفسى
بالفراش ؟

▭

الساعة الآن العاشرة

آه يا ابنتى المسكين ! سوف اموت بعد ست ساعات! وسوف
أكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب !
وسوف يشرح الراس فى جهة والجذع فى جهة اخرى ، ثم يلقى
بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلامار »

هذا هو يا ابنتى ما سيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين
لايكرهنى احد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعا ، والذين
يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل
تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل
رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكين انت ياصغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا
لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ،
ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان

يأخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له ان تقفزى
على ركبتيه ، والذى كان يجعلك فى المساء تضمين يديك
لتصلى لله !

من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا «مارى» بعد الآن ؟ من
ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء
الا انت يا مارى . كيف تفقدين يا ابنتى عيد راس السنة ،
والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين
أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد راوها على الاقل ، ابنتى
« مارى » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا انه يجب الا يقتل
أب لطفلة عمرها ثلاثة اعوام !

وعندما تكبر ابنتى ، اذا قدر لها ان تكبر ، فماذا عسى ان
يكون مصيرها ؟ ان اباها سيصبح ذكرى من ذكريات اهل
باريس ! لسوف تحمر خجلا منى ومن اسمى ! انها ستكون
محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببى
انا ، انا الذى احبها بكل مافى قلبى من حنان . آه يا « مارى »
ياطفلتى الصغيرة المحبوبة ! احقا انك ستخجلين منى وتشعرين
نحوى بالاشمئزاز ؟

انا .. يالى من بائس ! ويا للجريمة التى اقترفتها، ويا للجريمة
التى اتسبب فى أن يقترفها المجتمع !

آه ! أصحيح حقا اننى سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ احقا
اننى انا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح

الذى اسمعه فى الخارج ، وهذا السيل المرح من الجماهير التى
تسرع على ارصفة نهر « السين » ، وهؤلاء الجنود الذين
يستعدون فى ثكناتهم ، وهذا القسيس بثيابه السوداء ، وهذا
الرجل الآخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من
اجلى ؟ من اجلى انا الذى سأموت ! انا نفسى الذى استقر هنا
حيا واتحرك واتنفس ، واجلس امام هذه المنضدة التى تشبه
اية منضدة اخرى ، ويمكن ان تكون كذلك فى اى مكان آخر !
انا كذلك ، هذا الشخص الذى المسه واشعر به ، والذى ثيابه
هذه طياتها !؟

□

آه لو كنت اعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف
صنع هذا المقعد ، وباية طريقة يموت المرء بهما ! لكن هذا
شيء رهيب ، انى لا اعرفه . ان اسم هذا الشيء يثير الرعب
فى النفوس ولست افهم على الاطلاق كيف استطعت ان اكتب
هذه الكلمة وان انطق بها

ان تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها
قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس
الذى اخترع هذا الشيء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر !
انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى
مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى .
كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى اظل اهدم وابنى اجزاءها
الجهنمية فى نفسى دون انقطاع

انني لا اجرؤ على السؤال عنها ، غير ان من المرعب الا اعرف ماهي ، ولاكيف اتصرف وانا واقف عليها ، ويبدو لى ان بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه .

آه ! ان شعرى سوف يبيض لامحالة قبل ان يسقط راسى !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة

كنت ذات يوم امر فى عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، واخرجت راسى من نافذة العربة فرايت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على ارصفة نهر « السين » ، وكان الرجال والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجرى ، ومن فوق الرءوس كان فى وسع المرء ان يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم فى نفس اليوم الذى كانوا يعدون فيه الآلة

واشحت بوجهى قبل ان ارى ، وفى تلك اللحظة سمعت امراة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبى : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع »

ومن المحتمل اليوم انهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك فى انهم « يشحمون »

المجرى الآن

آه ! فى هذه المرة ايها التعس لن تستطيع ان تشيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عنى العفو ، فالملك ليس غاضبا على . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامى ، وبسرعة ! انى اقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، اقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، واقبل معها كى كتفى بالحديد الاحمر المحمى فى النار كما يشاءون .. ولكن ، ليعتقوا رقبتى فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشى ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !

هذا القسيس

وجاء القسيس الواعظ

كان أبيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان فى الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رايته فى هذا الصباح يفرغ ما فى جيبه فى ايدى السجناء ، فلماذا لايوجد فى صوته مايؤثر او يدل على التأثر ؟ كيف يتفق انه لم يقل لى بعد شيئا يؤثر فى تفكيرى او يمس قلبى ؟

لقد كنت تائها فى هذا الصباح حتى اننى لم اكد اسمع ماقاله لى ، ومع ذلك فقد بدت لى كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج

ومع ذلك فقد اراحنى مرأى الرجل بمجرد ان عاد الى جوارى ، فهو الذى لايزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا فى نفسى وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع أية كلمة طيبة مواسية

وكنا جالسين ، هو على المقعد ، وانا على السرير ، فقال لى :

– يابنى ..

وأحسست فى تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبى .

المغلق ، واستمر القسيس فى حديثه قائلا : « أتؤمن بالله يا بنى ؟ »

– نعم يا ابى

– وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية ؟

– نعم فى كثير من السرور

وهنا استطرد الرجل يقول :

– يبدو عليك انك متشكك يابنى

ثم اخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن اخيرا انه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألنى قائلا :

– حسنا ؟

فأكدت له انى قد استمعت اليه ، فى شغف اولا ، ثم فى انتباه ثانيا ، ثم فى اخلاص ثالثا

ثم نهضت بدورى وانا اجيبه قائلا :

– سيدى .. أرجوك أن تدعنى وحدى

– ومتى اعود ؟

– سوف اخبرك فى الوقت المناسب

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه اى اثر للغضب ، غير انه كان يهز رأسه كما لو كان يقول فى نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى أسفل الدرك فأنا لست كذلك ، والله شهيد على انى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا احس به ، او المس حنانه على أو يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شيء يصل الى قلبى ، شيء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن اشياء اراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شيء وعلى كل انسان ، عن اشياء هى ادنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، أو نص للقديس « أوجستان » او للقديس « جريجوار » لست أدرى ايهما ! ثم انه كان يبدو عليه انه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، او انه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه

وكيف يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى ان يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . ان السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون ، وهو الذى يساعدهم ، لأن هذه هى وظيفته التى يؤديها . لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الآخرين الى الموت وألف منذ زمن بعيد ما تقشعر له الابدان ان شعره الابيض لم يعد يقف فوق رأسه ، فالليمان والمشنقة شيئان يراهما فى كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم

بالاشغال الشاقة ، واخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه فى الليلة السابقة بانه سيكون لديه شخص ليواسيه فى وقت كذا ، فيسألهم من اى نوع هو : الاشغال شاقة ام « اعدام » ؟ .. ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه ، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمان « طولون » واولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه افكارا مطروقة ، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروقة كذلك

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لى بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول « ابرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون انت من تواسيه ، يجب أن تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وأن تركب معه فى العربة ومعك صليبك كى تحجب عنه منظر الجلاد ، وأن تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ، وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وأن تقبله وهو يرقى الى المقصلة ، وأن تظل واقفا هناك حتى يفصل راسه عن جسده ، ويصبح راسه هنا وجسمه هناك

فليحضروا الى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده بأسره يرتعد من قمة راسه الى أخمص قدمه ، وليلقوا بى بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكى عندئذ ولسوف ابكى

معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فأشعر بالمواساة وأسكب مافى قلبى فى قلبه ، وسوف يملك على زمام نفسى وتنتقل الى قوة ايمانه

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، اين هو منى واين انا منه ؟ إننى انسان شقى ، وظل من الظلال التى طالما راى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام !؟

وقد أكون مخطئا بابعاده عنى على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وأنا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبى للأسف ! وانما مرد ذلك لآرائى كانسان محكوم عليه بالموت ، فالآراء كثيرا ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل !

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا اننى لابد أن اكون فى حاجة اليه . هاهى ذى مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، وألوان أخرى كذلك .. حسـنا ! لقد حاولت أن آكل ، ولكن الطعام سقط من فمى عند أول لقمة تناولتها ، وقد بدا لى كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق رأسه (١) ، فألقى على نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب وأخذ يقيس أحجـار الجدار من أسفل الى أعلى ، وهو يتكلم بصوت مرتفع للغاية ،

(١) تقضى التقاليـــد الغربية بان يرفع المرء القبعة عن رأسه عندما يدخل على قوم أو يحيى شخصا ما

ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة اخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسالت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى انه يبدو انه يعمل كمساعد مهندس فى السجن

ومن ناحية أخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات ، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم انعم النظر فى لحظة، وهو يهز راسه فى غير مبالاة ، واستأنف حديثه وهو يتـابع قياس ابعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل .

وما ان فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « ياصديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة اشهر افضل من هذا بكثير »

وكانت الحركة التى أتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ أننى كنت أرى اللحظة التى كان يوشك فيها أن يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه ، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر رأسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لايرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، أما أنا فبقيت هناك كحجر من الاحجار

التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شيء يبعث على السخرية ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وانا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم اصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لاتعبير فيه

ولم اكن من ناحيتى قد أعرت ذلك اى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وانا أحاول ان ارطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى

واحسست فجاة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها راسى .

كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى

وهذه– تقريبا – هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى !

قال لى الرجل :

– هل انت طيب القلب أيها المجرم ؟

– كلا !

وبدا لى أن سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

– ان المرء لايكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء

– ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

– عفوا أيها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، أريد أن أقولهما لك : اذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فأجبته قائلا وأنا اهز كتفى :

– هل انت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! انا ؟ .. أنا اسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا– وان كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء – وهو يقول لى :

– نعم أيها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . انا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، واجرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير أننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . ان المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الآن كى اربح فى « اليانصيب » ، الا ان احصل على الارقام الجيدة ، وأنا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن أرقام مضمونة ولكنى اقع دائما على أرقام تجاورها ، أقامر على الرقم ٧٦مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لاأهتدى الى الرقم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء – ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى – عفوا أيها المجرم – انك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد ان الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون ارقام «اليانصيب» الرابحة مقدما . عدنى ان تعود مساء غد – ولن يضيرك هذا فى شيء – لتعطينى ثلاثة ارقام ، ثلاثة أرقام رابحة اليس كذلك؟ انى لا أخاف الاشباح فكن مطمئنا ، واليك عنوانى : « ثكنات

بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ فى نهـاية الدهليز »
وسوف تتعرف على فى غير عناء اليس كذلك ؟ ويمكنك ان
تحضر حتى فى هذا المساء ان كان هذا يروق لك

وكنت شديد الرغبة فى احتقار هذا الاحمق بعدم الرد عليه،
لولا ان ثار فى نفسى امل جنونى ، ففى مثل الحالة اليائسة التى
كنت فيها ، يعتقد المرء احيانا ان فى وسعه ان يحطم سلسلة
حديدية بشعرة

فقلت له وانا امثل بقدر مايستطيع ان يمثل انسان يوشك
ان يموت :

ــ اصغ الى .. اننى استطيع حقا ان اجعلك اغنى من الملك،
ان اجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ــ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف افعل كل شىء لارضائك ايهـــا
المجرم !

ــ اعدك بأربعة ارقام لا بثلاثة . استبدل ملابسك بملابسى

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى فى زيه العسكرى :

ــ لو كان الامر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدى وأنا أرقب كل حركة من حركاته
وقلبى ينتفض فى صدرى ، وكنت اتخيل الابواب وهى تفتح
امام زيى كحارس من حراس السجن ، واتخيل الميـدان ،
والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهرى !

ولكن الرجل التفت الى وهو يقول فى تردد : « آه يا هذا !

لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا أن تخرج من هنا ؟

فادركت عندئذ أن كل شىء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا
اخيرا لا طائل تحته ، جهـــدا غير منطقى على الاطـلاق !
فقلت له :

ــ اننى اقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون ...

فقاطعنى الجندى قائلا :

ــ آه ! حسنا ! كلا ، كلا .. عجبا ! فلكى تربح ارقامى يجب
ان تكون انت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم اشعر بمثله
قط من قبل !

أيام صباى

أغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا ان انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما أنا أحلم ، عادت الى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر اخرى ، عادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى راسى

هأنذا ارى نفسى مرة اخرى طفلا وتلميذا ضاحكا نضرا ، ألعب واجرى واصيح مع اخوتى فى هذا المر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصل حديقة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة ، قبة كنيسة « لوفال دوجراس »

وهأنذا هناك أيضا بعد ذلك بأربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شابة فى الحديقة المنعزلة . كانت أسبانية صغيرة تدعى «بيبا» (١) ذات عينين كبيرتين ، وشعر أسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا

(١) Pepa (اسم التدليل) ، واسمها الاصلى كماورد فى نفس الصفحة Pepita

وكانت أمانا قد قالتـــا لنا آن نذهب لنجرى معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا ان نلعب وهانحن أولاء نتبادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١)

ومع ذلك فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت اتشاجر مع « بيبا » على اجمل تفاحة فى شجرة التفاح ، وكنت اضربها من اجل عش العصافير . انها كانت تبكى فكنت اقول لها : « حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى امينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع اننا كنا مخطئين ، ثم تقولان فى صوت خفيض انا كنا على حق

هاهى ذى الآن تتكىء على ذراعى وقد غمرنى الفخر وتملكنى الانفعال. اننا نسير الهوينى ، ونتحدث بصوت خافت . هاهى ذى تترك منديلها يسقط فالتقطه لها . ان أيدينا ترتعش عندما تتلامس . وهى تتحدث الى عن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذى نراه هناك ، وعن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر، او عن صديقاتها فى مدرسة الراهبات ، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية . اننا كنا نتكلم فى امور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا .. ان الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة

وفى ذاك المساء بالذات ــ وكان مساء ليلة من ليالى الصيف ــ كنا جالسين تحت أشجار الكستناء فى نهاية الحديقة ، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! »

(١) المقصود هنا انه ذكر وانها انثى

انني لازلت اراها وهى ترتدى ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطرها حينئذ فكرة من افكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « ببيتا » مرة ثانية

وقالت لى : « هيا بنا نستبق ! »

واخذت تعدو امامى بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها الى منتصف ساقيها . وكنت اتبعها وهى تهرب امامى ، وكان الهواء الذى يحدثه عدوها يرفع احيانا قميصها الاسود فيتيح لى ان أرى ظهرها الاسمر النضر .

وكنت لا استطيع مغالبة نفسى ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وامسكت بها من حزامها بحق انتصارى عليها فى السباق ، ثم اجلستها على العشب فلم تقاومنى ، وامتثلت وهى تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا اكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال اهدابها الطويلة السوداء

وقالت لى « بيبا » : « اجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا ، أليس معك كتاب ؟ »

وكان معى يومئذ الجزء الثانى من كتاب « رحلات سبالازانى » ، ففتحته فى صفحة ما واقتربت منها فأسندت كتفها الى كتفى ، واخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هى تضطر الى انتظارى قبل ان اقلب الصفحة، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحى وكانت تقول لى وانا لم اكد انتهى من قراءة السطور الاولى

من الصفحة : « هل انتهيت ؟ »

وكان رأسانا فى خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وانفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا !

ولما اردنا ان نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء ..

وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا أماه ! آه يا أماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! »

أما انا فلذت بالصمت

وقالت لى والدتى : « انك لا تقول شيئا يابنى ! يبدو انك حزين ! »

ولكنى لم اكن حزينا ! .. ان الجنة كانت فى قلبى ! لسوف اذكر هذه الامسية مدى حياتى !

طول حياتى !!

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست ادرى اية ساعة تلك التى دقت فلم أعد اسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لى ان فى اذنى صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكارى الاخيرة تدوى فى اذنى :

فى هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتى ، وجدت جريمتى فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ، ولكنى أتمنى كذلك أن اندم أكثر من ذى قبل . لقد كنت أكثر ندما منى الآن قبل أن يصدر الحكم على ، ومنذ ذلك اليوم ، يبدو لى أن ليس هناك مكان فى نفسى الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فانى راغب حقا فى أن

اندم كثيرا

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضربة المقصلة التى يجب ان تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، اجتاحتنى رجفة كأن هذا شيء جديد ! يا لطفولتى الجميلة ! ويا لشبابى الجميل ! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب واطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من اندم ، دم الرجل الآخر .. ودمى انا !

اذا قرا الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة

ومع ذلك ، فيا أيتها القوانين البائسة ، ويا أيها الرجال التعساء : انى لم اكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! أأموت بعد بضع ساعات ، وانا افكر فى اننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منذ عام واحد ؟ وفى أننى كنت أتنزه نزهات الخريف ، وأجول كما يروق لى وأسير تحت أوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هناك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد اناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ، ويطالعون الصحف ويفكرون فى أعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب

السهرة لحفل الليلة الراقص ، وامهات يلعبن مع اطفالهن !!

اذكر انى ذهبت يوما وانا صبى لرؤية ابراج كنيسة «نوتردام» وكنت قد اصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزونى المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذى يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمى ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهو يزن الفا من الكيلوجرامات

ولقد مشيت وانا ارتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وانظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس واطفالها ، والاحظ فى رعب أن المنحنيات المغطاة بالقرميد التى تحيط بالناقوس كانت فى مستوى قدمى ، وكنت ارى فى أثناء ذلك ، وكأنى طير طائر فى الهواء ، المارين بميدان كنيسة «نوتردام» وكأنهم النمل !

وفجأة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت أقع على ظهرى من جراء هذا الصوت ، فترنحت بعض الشيء وأوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وأنا احضنها بذراعى فى عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذى يجلجل فى اذنى ، وتحت عينى هذه الهوة السحيقة ، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهادئين الآمنين الذين كنت أحسدهم

فى تلك اللحظة على ما هم فيه

حسنا! انه ليبدو لى الآن اننى لازلت فى برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك انى اسمع فى هذه الساعة نفس الدوى واحس بنفس الذهول ، فهناك شيء ما شبيه بدقات الاجراس يهز اعماق مخى ، ولم أعد الح من حولى هـــذه الحياة المهدة الهادئة التى تركتها وراء ظهرى ، والتى لا يزال الآخرون يدرجون فى طريقها ، لم اعد الحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة

▭

ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الاعمدة الصغيرة ، ونوافذه التى تعد بالمئات ، ودرجات سلالمه التى تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد انه يبدو قاتما فى الشمس !

وفى الايام التى يتم فيها تنفيذ أحكام الاعدام ، تقذف أبوابه جميعا رجال الشرطة ويطل كل من فى نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفى المساء تظل مزولته التى بينت لى الساعة مضيئة فى واجهته المظلمة

الساعة الآن الواحدة والربع

وهذا هو ما اشعر به الآن :

انى اقاسى صداعا شـــــديدا ، وبرودة مروعة فى كليتى ، وجبينى ملتهب ، وكلما وقفت او انحنيت بدا لى ان هناك سائلا يجرى فى مخى فيجعله يضطرب فى غلاف جمجمتى

اننى احس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخـر يسقط القلم من يدى كما لو كانت تهزنى صدمات كهربائية

ان عينى ملتهبتان كما لو كنت غارقا فى دخان واشعـر بألم هائل فى مرفقى

لسوف اشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس واربعين دقيقة !

انهم يقولون ان المقصلة لا شيء ، وان المرء لا يتألم ، وانها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا

آه ! أذن ما هذا الاحتضار الذى دام ســتة أســابيع ؟ وما هذه الحشرجة التى دامت يوما بأكمله ؟ وما هى اذن آلام هذا اليوم الذى لن يعوض والذى يمر بسرعة بالغـة وفى بطء بالغ كذلك ؟ وما هو اذن هذا السلم من العـذاب الذى ينتهى الى المشنقة ؟

وليس هذا كله الما فى الظاهر !

أو ليست هى نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفىء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم انهم يقولون ان المرء لا يتألم من المقصلة ، فهـل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذى قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط ان راسا مقطوعا وقف يقطر دما على حافة السلة ليصيح

فى الجمهور قائلا : « ان هذا لايحدث الما ! »

هل حدث ان أمواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ،وعليكم ان تستمروا فى استعماله ! انه آلة جيدة ! »

وهل هو « روبسبيير » الذى قال هذا أو « لويس السادس عشر ؟ ».

كلا ! لا شيء من هذا ! ان الامر ينتهى فى اقل من دقيقة ، بل فى اقل من ثانية ! — فهل وضعوا أنفسهم قط ، ولو فى الخيال، موضع الشخص الذى يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتعض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبةوعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ .. ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة ! وان الالم يختصر ! . فيا للهول !

من الغريب حقا انى لا أكف عن التفكير فى الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت رأسى ، فان هناك صوتا يتردد فى اذنى ويقول لى على الدوام : « هناك فى نفس هذه المدينة ، فى نفس هذه الساعة ،ولكن فىقصر آخر (١)،رجل لديه كذلك حراس على كل ابوابه ، ، وهو شخص فريد فى نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه مرتفع بقدر ما أنت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شيء من حوله عبارة عن

(١) أى فى قصر آخر غير هذا القصرالذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء

حب واحترام وتبجيل . ان أكثر الاصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحنى أمامه أكثر الجباه تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ، وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رأيه ، أو أنه يفكر فى رحلة الصيد التىسيقوم بها غدا ، أوفىحفل هذه الليلة الراقص ، وهو على يقين من انه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! — ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شيء : حياتك ، وحريتك ، وثروتك ، وأسرتك ،يكفىمنهان يكتببهذا القلم الحروفالسبعة التىيتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، أو تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ساحة الاعدام ! — وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى أكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !

▱

حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ما هوالموت، ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرأ الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر

انه ليبدو لى اننى عندما ستغمض عيناى ، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالانهاية ، ويبدو لى أن السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان

النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات ! نعم ، يبدو لى أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من ان تكون كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء

أو قد تكون ويا لشقائى ــ هوة مروعة ، جدرانها مبطنة بالظلمات ، اهوى فيها بلا توقف وانا ارى أشباحا تتحرك فى الظلام !

أو أننى قد اجد نفسى بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة،وانا ازحف فى الظلام ، وادور على نفسى مثل الرأس الذى يتدحرج ، ويخيل الى انه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ، فأصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج ، واننى سأمر احيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وانهار بها سائل فاتر مجهول ، وأن كل شىء سيكون حالك السواد ، وانعينى حينما تتجهان فى دورانهما الى أعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ، ضخمة من دخان أسود كالظلمات ،ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلك شررا صغيرا أحمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد

وقد يحدث احيانا فى مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاء السوداوات فى الميدان

الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هذا الجمع جمهورا شاحبا داميا ، ولن أتخلف عن أن اكون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات خافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة ، وسقفه الممزق ، ومزولته التى كانت لا ترحم أحدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعدم بها أحد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن اذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به من اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا ام جذعا ؟

وا أسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بأرواحنا ؟ وأى شكل يدعه لها ؟ ما الذى يأخذه منها أو يعطيها اياه ؟ وأين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! اريد قسيسا يعرف هذا ، ويحدثنى عنه ! اريد قسيسا وصليبا اقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١)

▱

لقد رجوته أن يتركنى فأنام ، والقيت بنفسى على السرير ،

---

(١) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له

وكان دمى كله قد صعد فى الواقع الى رأسى ، فحملنى هذا على النوم . كانت هذه نومتى الاخيرة من هذا النوع !

ورايت فى المنام أن الوقت كان ليلا ، وخيل الى انى كنت فى مكتبى مع اثنين من اصدقائى أو ثلاثة ، لست أدرى من هم على وجه التحقيق

وكانت زوجتى نائمة مع طفلتها فى الغرفة المجاورة

وكنا نتحدث انا واصدقائى فى صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف فى أنفسنا

وفجأة ، خيل الى انى اسمع صوتا ما فى الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح !

وكان أصدقائى قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ،فأنصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب فى صوت ضئيل

وكان ثمة شيء يثلج اطرافنا : وهو أننا كنا خائفين . وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكنى فى هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا ان نذهب لنرى ما هنالك . فنهضت من فوق مقعدى ، وأخذت الشمعة فى يدى ، وتبعنى اصدقائى واحدا فى إثر الآخر

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتى نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شيء كانت الصور مثبتة فى اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير انه خيل الى ان الباب الذى بين غرفة الجلوس

وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ، وكنت انا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعندما بلغت المدفأة رايت ان صوان الملابس كان مفتوحا ، وان بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فأدهشنى هذا ، واعتقدنا ان هناك شخصا ما وراء هذا الباب

فأمسكت هذا الباب بيدى كى أعيد اغلاقه ولكنه قاومنى . فعجبت وجذبته بقوة هى اكبر من سابقتها ، وفجأة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امراة عجوزا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين ، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر راسى عندما افكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت اسألها قائلا : « من انت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين

وعندئذ قال لى أصدقائى : « انها دون شك شريكة هؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد انهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبأت هنا ! »

فسألت المراة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولا تتحرك ولا تنظر ! ودفعها احدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة

واحدة ، كأنها قطعة من الخشب أو شيء جامد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم أوقفها اثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير أنها لم تبد مايدل على أنها على قيد الحياة ! فصرخنا فى أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفد صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من أصدقائى : « ضع الشمعة تحت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فأبعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! أخيرا ! هلا أجبتنى أيتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون : « أنها تبالغ كثيرا فى هذه المرة ! أعد الشمعة مرة أخرى اذ يجب أن نحل عقدة لسانها !

فأعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها فى بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الآخر ، ثم انحنت فجأة ونفخت فى الشمعة بنفس بارد ، واحسست فى نفس اللحظة بثلاث أسنان حادة تنغرس فى يدى فى الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومى مذعورا وقد غمر جسمى عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند أسفل سريرى يتلو بعض الصلوات

فسألته قائلا :

ـ هل نمت طويلا ؟

فأجابنى بقوله :

ـ نمت ساعة يابنى . لقد أحضروا لك ابنتك وهى هنا تنتظرك فى الحجرة المجاورة ، ولم أشأ أن يوقظك أحد

فضحكت قائلا :

ـ آه ! ابنتى ؟ ليأتونى بابنتى !

ماری ابنتی

انها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد ألبسوها ثوبا يلائمها تماما

أخذتها ورفعتها بين ذراعى ، ثم اجلستها على ركبتى وقبلت شعرها

وساءلت نفسى : ترى لماذا لم تحضر معها امها ؟ الأن امهـا مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فى دهشة بادية ، بينما اخـذت اداعبها ، وأحضنها ، والتهمها بقبلاتى وهى تتركنى افعـل كل ذلك، غير انها كانت بين لحظة وأخرى تلقى نظرة حائرة على خادمتها، التى كانت تبكى فى ركن الغرفة

واستطعت اخيرا أن أتكلم فقلت لها :

ـ « مارى ! » ياصغيرتى « مارى ! »

وكنت فى تلك اللحظة أضـمها فى عنف فوق صـدرى المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لى :

ـ آه ! انك تؤلمنى يا سيدى !

« سيدى ؟ ! » ها هو ذا عام تقريبـا قد انقضى لم ترنى

خلاله هذه الطفلة المسكين ! لقد نسـيتنى ، نسيت وجهى وكلامى ولهجتى ، ثم ... من ذا الذى يستطيع ان يعرفنى وانا بهذه اللحية ، وفى هذه الثياب ، وفى مثل هذا الشحوب ؟ آه ! اهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهى الذاكرة الوحيدة التى كنت أود أن اعيش فيها ! آه ! ابمثل هذه السرعة لم اعد ابا ؟ أنا الذى قضى على ألا إسمع قط بعد الآن هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التى هى من لغة الاطفال ، والتى تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن ان تبقى معه فى ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا اتمنى الا ان أسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى ، مرة واحدة فحسب ... هذا هو كل ما كنت أريده فى مقابل الاربعين سنة التى سيأخذونها من عمرى !

قلت لها وانا آخذ بيديها الصغيرتين فى يدى :

ـ اصغى الى يا « مارى » .. الا تعرفيننى ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم اجابت قائلة :

ـ آه ! حسنا .. اننى لا اعرفك !

فعدت اكرر القول :

ـ أنظرى الى جيدا .. كيف لا تعرفين من انا ؟

فقالت لى :

ـ بلى ، بلى .. انك سيد

وا أسفاه ! هاهو ذا امرؤ لايحب من اعماق قلبه الا مخلوقا واحدا فى هذا العـالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده أمامه ،

وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا أريد عزاء الا منها ، فهي الانسان الوحيد الذي لا يعرف أني في حاجة الى العزاء ، لانى أوشك أن أموت !

واستأنفت حديثي معها قائلا :

ــ الك اب يا « ماري ؟ »

ــ نعم يا سيدى

ــ حسنا ، وأين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ــ الا تعلم اذن ؟ لقد مات يا سيدى !

وما أن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاى على مارى لهول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط منى على الارض ! بينما كنت أقول لها :

ــ مات ! اتعرفين يا « مارى » ما معنى انه مات ؟

فأجابتني قائلة :

ــ نعم يا سيدى .. انه فى الارض وفى السماء

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلى من أجله صباحا ومساء وانا على ركبتى ماما »

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ــ قولى لى صلاتك يا « مارى »

ــ لا استطيع يا سيدى . ان الصلاة شيء لا يقال بالنهار . تعال عندنا فى البيت هذا المساء وانا أقولها لك

وكان هذا حسبى لكننى قاطعتها قائلا :

ــ « مارى » أنا والدك !

ــ آه !

فعدت اقول :

ــ اتحبين أن اكون والدك ؟

فاشاحت الطفلة عنى بوجهها ثم قالت :

ــ كلا .. لقد كان والدى أجمل منك كثيرا !

فاخذت اغرقها بقبلاتى ودموعى ، فحاولت ان تفلت من بين ذراعى ، وهى تصيح قائلة : « انك تؤلمنى بلحيتك ! »

وعندئذ أجلستها ثانية على ركبتى وأنا أحرسها بعينى ثم سألتها قائلا :

ــ اتعرفين القراءة يا « مارى » ؟

ــ نعم ، اعرفها جيـــدا ، ان والدتى تجعلنى أقرأ حروفا اكتبها بنفسى

فقلت لها وانا اريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة فى احدى يديها الصغيرتين :

ــ أرينى كيف .. هيا اقرئى قليلا !

فهزت راسها الجميل وقالت :

ــ حسنا ! لست اعرف الا قراءة الحكايات

فعدت أقول لها :

ــ استمرى فى المحاولة .. أرينى .. اقرئى

فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة بأصابعها :

— ح .. ك .. حك .. م .. « حكم » (١)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، اما انا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات أستطيع بها أن أعبر عما كنت أقاسيه فى تلك اللحظة ! كان عنفى قد روعها واخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجأة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ! عجبا ! »

فأرجعت الطفلة الى الخادمة وانا اقول :

— خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائسا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأى شىء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، وأحسب أن كل واحد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

لقد قضى الامر الآن ، فيجب على أن اتصلب فى أعماق نفسى ، وأن أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود ، والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف

(١) Arrêt « حكم » : كانت هذه اول كلمة مكتوبة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه

نهر السين ، وفى الذين يقفون امام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ، ساحة الاعدام المظلمة التى يمكن ان ترصف بما هوى من الرءوس

احسب انه لا تزال امامى ساعة كى آلف كل ذلك

ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجلادون ، والذين يسرعون فى مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التى ستغطى الميدان ، هناك أكثر من راس كتب عليه ان يتبع راسى ان عاجلا أو آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلى سوف يأتون فى يوم من الايام من أجل أنفسهم !

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة فى ساحة الاعدام ، هى عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية وفخ منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى ان يترددوا فيه !

إبنتى الصغيرة « مارى ! » — لقد أعادوها لتلعب .. انها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التى تقلها ولم تعد تفكر فى هذا « السيد ! »

قد يتاح لى كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقراها فى يوم من الايام ، وتبكى بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم

نعم ، يجب ان تعرف « مارى » قصتى منى وان تعرف السبب فى ان الاسم الذى اتركه لها يقطر دما !

قصتى

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد ازف عندما خطرت له هذه الفكرة

الى ساحة الاعدام

من غرفة بدار المحافظة ! اننى هنا اذن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهى ذى ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتى وينتظرنى وهو يضحك !

وقد حاولت جهدى أن أتشجع أو أستجمع قواى ولكنى كنت أحس دائما بأن قلبى يخوننى ، وقد خاننى اكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين ، وفى نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعنى من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لى بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت ان اعترف اعترافا اخيرا ، فأحضرونى الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهأنذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطروننى بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت أفكر فى شىء آخر منذ ست ساعات او منذ ستة أسابيع ، بل منذ ستة اشهر ، لقد كان لهذا فى نفسى وقع سيىء لم اكن أنتظره

(١) ذراعا المقصلة وسكينها

وساقونى أمامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير • كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وأمرونى بالجلوس فجلست

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفـــون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين

كان أولهم ــ وهو اطولهم قامة واكبرهم سنا ــ بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث • لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الآخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتى اقترب منى الرجلان الآخران من الخلف وكأنهما قطان ، وفجأة ، أحسست ببرودة الصلب تسرى فى رأسى وصلصلة المقصات تدوى فى أذنى ، وأخـذ شـــعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس

وكانت تترامى الى أذنى من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر أنها صادرة من النهر ، ولـكنى

ما لبثت أن سمعت ضحكات عالية ، فأدركت أن تلك الجلبــة كانت منبعثة من الجماهير

وكان هناك شاب يقف الى جوار النـــافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ، فسأل أحد الحراس قائلا :

ــ ما هذا الذى يفعلونه الآن بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ــ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

فقهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا فى الصحف

وفجأة ، خلع لى أحد خادمى الجلاد سترتى ، وأخذ الآخر يدى اللتين كانتا تتدليان الى جانبى وجذبهما وراء ظهـرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء • وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى ؛ لكن قميصى «الباتستا» وهو الخرقة الوحيدة التى تبقت لى مما كنت أرتديه فيمـــا مضى ــ جعله يتردد لحظـــة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته »

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد

وقال لى الرجل :

ــ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر أن أشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له بأعلى صوت استطعته : « شكرا ، هذا لا جدوى منه فأنا أشعر بانى فى حالة جيدة »

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لى ان أخطو الا خطوات ضيقة للغاية ، ثم ربطوا هـذا الحبل الاخير بحبل يدى

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معا من أسفل ذقنى · كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنا قد انتهى

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى »

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضت ومشيت · كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق من ساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجأة وأنا فى الظلام ، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض · ورأيت فجأة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذة الصغيرة المعتمة آلافا مؤلفة من الرءوس رءوس الشعب الذى تكدس بعضه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير · وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البـوليس على ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صدورهـا وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكانت هناك فى

مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كما ظهـرت الى اليسار مؤخرة عربة (كارو) كان يرتكز عليها سلم غليـظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تمـاما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت ان أحتفظ بشجاعتى حتى هـذه اللحظة الرهيبة ، فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدت أبدو عند باب القاعة ، حتى علا صـياح الجماهير قائلا : « هـذا هو ! هذا هو ! هاهوذا يخرج أخيرا ! » وكان أقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هـذه الحفاوة

وكانت العربة عربة (كارو) عادية يجرها جواد هـزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر »

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العـربة أولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسـيد شمشون » ثم تبعـه الى العربة أحد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جـديد : « مرحى يا ماردى ! » وجلس الرجلان على مقعد العربة الامامى

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهـر ثابت بعض الشىء . وفى تلك اللحظـة قالت امرأة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاء القسيس

ليجلس الى جوارى وكانوا قد أجلسونى على المقعـــد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور

وأردت أن أنظر حـــولى · كان أمامى جنـــود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير ·· نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى · وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعهـــا الى الامـــام

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العـــربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزا فى غير هوادة ولا رحمـــة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى ، الى قوة الحراسة

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عندمرور الملك : أخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات ·· وأنا الرأس ! » (٢)

---

(١) لتحية الذاهب الى الموت عندمروره

(٢) اى هم يخلعون قبعاتهم وانا سيخلع رأسى !

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكاناليوم يوم الســـوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحـــافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منهـــا يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقـــاعد والمنصـــات والعربات (الكارو) ، وكان كل شىء مزدحمـــا بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، ووددت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائهـــا وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعـــد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم منوراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش،

وكنت أرى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى »

ولست أدرى كيف كان لايفوتنى شيء مما كان يدورمن حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف الى نفسى عذابا فوق عذاب . ولست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر عما أشعر به من انفعالات

وفى نحو منتصف قنطرة «أوشانج» العريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتى كنا نسير فوقها فى صعوبة بالغة ، تملكنى رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعى . ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على أن أعمل على تشريد ذهنى حتى اصير كالأعمى الاصم فلا ارى شيئا ولاأسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت أسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك يا الهى ! »
وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل « مطب » تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم احسست فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيرا

وسألنى القسيس قائلا :

ــ أترتجف من البرد يا بنى ؟

فأجبته بقولى :

ــ نعم

وكنت للاسف لا أرتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن . ثم مضينا قدما على طول الرصيف المشئوم ، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التى تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا الجمهور الذى يعرفنى كله ولا أعرف شخصا واحدا منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! أنى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شيء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد ألقى بالا الى شيء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب . وفى غمرة الضجيج الذى كان يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو أفرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب ، فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ،وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير رأسى لانظر الى أى مكان كنت أسير . كان هذا تحديا أخيرا من العقل ، غير أن جسمى لم

يستجب لهذا ولبث عنقي مشلولا كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر ، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض أنه يرى موكبى فى وضوح

وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان انفسهم للاحلام

وفجأة ، انقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحـــا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضـــيتها » الخشبية ، فسندنى القسيس وهو يتمتم قائلا : «تشجع يابنى!»

وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحـــدة ثم التفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رأيت شيئا رهيبا بين عمودين من اعمدة النور فوق الرصيف

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كمالو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت

قائلا فى صوت مخنوق : « لدى اعتراف اخير اريد ان افـــضى به : » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان

وطلبت أن يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !

الرجاء الاخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست ادرى أيهم · فطلبت اليه العفو عني وأنا أضم يدى وأزحف على ركبتى · فأجابني الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هوكل ماتريد ان تقوله لى ؟ »

فعدت أكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب ·· على سبيل الرحمة ! »

من يدرى؟ فقد يصل امرالعفو! ومن الشناعة حقاًأن أموت هكذا وأنا فى مثل هذه السن ! وكثيرا ما رأينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عنى؟

يالهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقـــول له ان تنفيذ الحكم يجب أن يتم فى ساعة محددة ، وان هذه الساعة تقترب ، وانه كان مســـئولا ، وليقول له فوق هـــذا ان السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة أخرى على سبيل الرحمـــة ! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو ! والا فانى سوف أدافع عن نفسى ! سوف أعض ! »

فانصرف القاضى والجلاد ، وبقيت وحدى !

وحدى مع جنديين

أوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عواء الضباع! من يدرى ما اذا كنت أفلت منه ؟ من يعلم ما اذا كنت أعتق ؟ أو أن يصدر عفو عنى ؟ ··· من المحال الا يصدر العفو عنى !

آه ! يا للتعساء ! يبدو لى أنهم يصعدون السلم ! ···

الساعة الان الرابعة !



مهزلة بمناسبة مأساة

بقلم فيكتور هيجو

الشخصيات

مدام دى بلانفال
الفارس
ارجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

المكان : فى الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :
وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة
وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهر
ولما حضرت الفتاة وهى تبكى
وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس
على البرج القديم جدا فى القصر العتيق
سمعت « ايزور » الحزينة أنين الامواج
ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك
ربابة القصصى (الشاعر) اللطيف !

كل المستمعين ـ « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !
(ويصفقون فى نفس الوقت)

مدام دى بلانفال ـ هناك فى نهاية هـذه القصـيدة شىء غامض لا يمكن تعريفه ، شىء يسيل الدمع من العيون

الشاعر الحزين ـ (فى تواضع) : ان الكارثة مقنعة ؟

الفارس ـ (وهو يهز راسـه) : ان كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

الشاعر الحزين ـ نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة، رومانتيكية بمعنى الكلمة ـ ماذا تريد آذن ؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشىء

ـ نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقـد الذوق

الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى :

فى بلاد « باند » و «سيتير »
اخطر « جانتيى برنار »
بأن فن الحب يجب فى يوم السبت
أن يتعشى عند فن الاعجاب

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعـد ثمة شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعـارا مملوءة بالاستعارات .. ولكنى لست شاعرا .. انا .

الشاعر الحزين ـ ومع ذلك ، فالاشعـار الحـزينة والعاطفية ...

الفارس ـ اننا نريد ياسيدى اشعارا بها استعارة .. (ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال) : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

شخص ما ـ (مخاطبا الشاعر الحزين) : لدى ملاحظـ ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول « القصر القوطى ؟ »

الشاعر الحزين ـ ان كلمة « قوطى » لا تقال فى الاشعار

شخص ما ـ آه ! هذا أمر مختلف

الشاعر الحزين ـ (متابعا حديثه) : افهمنى تماما ياسيدى

.. يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست منهؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسي والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » (١) ومدرسة « بريبـوف » اننى رومانتيكى ولكنى معتدل ، والامر عندى تماما كالانفعالات ، فأنا أريدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا أريد أبدا دما وبشاعة . يجب تغطية الكوارث ، وانى لاعرف أن هناك أناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم .. عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

السيدات ــ أية رواية ؟

الشاعر الحزين ــ الرواية التى عنوانها : « آخر يوم » ..

سيد بدين ــ كفى ياسيدى ! فانا اعرف ما تريد ان تقول .. ان العنوان وحده يرهق أعصابى !

مدام دى بلانفال ــ وانا كذلك .. انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا

السيدات ــ أرينا اياه .. أرينا اياه !

(يمر الكتاب من يد الى أخرى)

شخص ما ــ (يقرأ) : آخر يوم فى حياة شخص ...

السيد البدين ــ رحماك ياسيدتى !

مدام دى بلانفال ــ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض

سيدة ــ (بصوت منخفض) : يجب ان اقرأ هذا الكتاب

---

(١) شاعر رومانتيكى من شعراء القرن السادس عشر

السيد البدين ــ من واجبنا ان نعترف بأن الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة ! .. أوليس تحليل كل الآلام البدنية ، وكافة أنواع العـــذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيـــه ، واحدة بعد اخرى ، والتغلغل فيهـا ، والتنقيب عن جذورها وملابساتها .. أو ليس هذا كله شيئا شنيعـا ؟ أتفهمـــن سيداتى انه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

الفارس ــ هذا فى الواقع عمـــل ينطوى على اكبر قدر من الوقاحة !

مدام دى بلانفال ــ ومن هو مؤلفه ؟

السيد البدين ــ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعـــة الاولى

الشاعر الحزين ــ انه هو بعينه الذى سبـــق له ان كتب روايتين أخريين .. أقسم بشرفى انى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدأ فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا يأكل طفلا

السيد البدين ــ وهل قرأت هذا ياسيدى ؟

الشاعر الحزين ــ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » ..

السيد البدين ــ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

الشاعر الحزين ــ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية وألوانا

عدة من القصائد لست أعرفها ، ولـــكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

الفارس ـ (ضــــاحكا) : يا الهى ! لابد ان يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر

الشاعر الحزين ـ لقد نشر كذلك دراما مسرحية ـ انهـم يسمون هذا دراما ـ ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة الف وسـتمائة وسبع وخمسين

شخص ما ـ ياله من بيت من الشعر !

الشاعر الحزين ـ ان هذا يمكننا كتابته بالارقام ·· انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧

(يضحك ويضحك معه الآخرون)

الفارس ـ لقد اصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »

السيد البدين ـ آه ! ان هذا الرجل لا يعرف كيف يقـرض الشعر فما هو اسمه ؟

الشاعر الحزين ـ انه اسم يصعب حفظه والنطق به ··وبه المقطع : « جو » ·· شيء يشبه « فيزيجو » على ما أذكر ،وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » (١)

يضحك

---

(١) قبائـــل البربر ألتى غـــزت الامبراطورية الرومانية · وواضح ان الشاعر الحزين يلمح هنا الى اســـم « فيكتور هيجو »

مدام دى بلانفال ـ انه رجل بغيض !

السيد البدين ـ بل رجل شنيع !

سيدة شابة ـ ان شخصا يعرفه قال لى ··

السيد البدين ـ أتعرفين شخصا يعرفه ؟

السيدة الشابة ـ نعم ، وهو يقول انه رجل حلو الطباع ، بسيط ، يضحك وهو فى عزلتـه ، ويقضى ايامه فى اللعب مع ابنائه

الشاعر الحزين ـ ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة · هذا شيء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقة طبيعية للغاية :

« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة »

وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخـر آه ! ·· هاهى ذى :

« فى الليل الحالك »

السيد البدين ـ كنت تقولين اذن يا سـيدتى ان المؤلف المذكور له ابناء صغار ·· ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! ... اوه ! مثل هـذه الرواية المفزعة ...

شخص ما ـ ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

الشاعر الحزين ـ انى لى ان اعرف ؟

فيلسوف ـ يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ·

السيد البدين ـ انى اقول لكم ان هذه الرواية شيء بشع !

الفارس ـ آه ! انى ارى ذلك . . انها اذن مبارزة مع الجلاد

الشاعر الحزين ـ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد

سيد نحيل ـ استطيع ان اتصور ذلك ، فهى خطب اذن ؟

ـ كلا على الاطلاق ان هناك صفحتين على الاكثر عن نص عقوبة الاعدام ، أما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر

الفيلسوف ـ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضوع كان جديرا بالتأمل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شىء ، ثم انى قرات الكتاب ، وهو كتاب ردىء

الشاعر الحزين ـ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم . . آه لو كنت اعرفه ! ولكن . . كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لانعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى أن يثير اهتمامى بانسان لا أعرفه

السيد البدين ـ ليس من حق الكاتب ان يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما اشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل . . آه ! حسنا . . فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الرأس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم أحلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد ان قراتها

الفيلسوف ـ زد على ذلك انه كتاب بارد ومتكلف

الشاعر ـ اوه ! كتاب ! . . كتاب !

الفيلسوف ـ نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى ، انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى

لا اعنى بامر افتراضى محض ، ولست ارى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فاسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، افليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

الشاعر ـ بلا شك ، بلا شك ! يجب الا تكون هناك شخصيات

الفيلسوف ـ ان الشخص المحكوم عليه لا يثير الاهتمام

الشاعر ـ وكيف يمكن أن يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو اننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من أبوين شريفين وتلقى تربية طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة . . ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن ان يموت . وهنا ، كنت اتحدث عن موضوعى الذى اعالجه : عقوبة الاعدام

مدام دى بلانفال ـ آه ! آه !

الفيلسوف ـ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه السيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لايكون حكما للعام

الشاعر ـ حسنا ! هناك ماهو افضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت

وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

الفيلسوف ـ اما انا فلا !

الفارس ـ ولا انا . الواقع ان السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا

الفيلسوف ـ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام

السيد البدين ـ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمام بهذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد أن يكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث يأتى ليثير فى انفسنا بكتابه هذا كابوسا بشأن هذا الموضوع !

مدام دى بلانفال ـ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا اطفالا

الفيلسوف ـ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعرض الامور فى صراحة . . .

السيد النحيل ـ آه ! هذا هو ما ينقص الكتاب تماما : الحقيقة والصراحة

ماذا تريدون ان يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟ يجب أن يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرأت فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب ان المحكوم عليه لايقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! أما أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام وهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون . . . ؟ »

الفيلسوف ـ هل تأذن . . . ؟

السيد النحيل ـ عجبا أيها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هذا انه كتاب يفسد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن ان يشعر بانفعالات نقية طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن اولئك الذين يدافعون عن الادب السليم ؟ اننى أود أن أكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد « ارجاست » ، فما رأيك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

ارجاست ـ الحق ياسيدى اننى لم اقرا هذا الكتاب ولن أقراه . لقد كنت اتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشأنه مع الدوق « دى ملكور » . ويقال ان هناك بعض شخصيات ضد رجال القضاء، وخاصة ضد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو أن فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

الفارس ـ حسنا ! وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقروننى على ان شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام امر شنيع . آه ! فلو ان انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد ان ينشر رواية ضد تعذيب

المتهمين . . . ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شيء منذ سقوط الباستيل ! ان الكتب تحدث ضررا بليغا

السيد البدين ـ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولا نفكر فى شيء. كان يقطع فى فرنسا راس من حين لآخر هنا او هناك او راسان على الاكثر فى كل اسبوع ، غير ان ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لايقولون شيئا ، ولم يكن احد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب .. كتاب يحدث لك صداعا اليما !

السيد النحيل ـ علينا ان نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب

ارجاست ـ انه يربك الضمائر

مدام دى بلانفال ـ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

الشاعر ـ ليس ثمة شك فى ان الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى

السيد النحيل ـ دون أن نأخذ فى حسابنا اللغة التى يتحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك

الشاعر ـ علينا ان نميز أيها السادة ، فثمة « رومانتيك » و « رومانتيك »

السيد النحيل ـ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

ارجاست ـ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

السيد النحيل ـ ليس ثمة مايرد به على ذلك

الفيلسوف ـ (وهو يتكىء على مقعد سيدة) : انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى فى شارع موفتار

ارجاست ـ آه ! ياله من كتاب بغيض !

مدام دى برفال ـ اوه ! لا تلقوا به فى النار فهناك من تمتدحه

الفارس ـ حدثينى عن زماننا الماضي . لشد ما فسد كل شيء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

مدام دى بلانفال ـ كلا ياسيدى . لست اذكره ابدا

الفارس ـ لقد كنا نحن الشعب اكثر لطفا واكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرا الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . اهناك ماهو أروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب » عن الحفل الراقص العظيم الذى أقامته مدام « لاماريشال دومايى » فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعدم فيه « داميان » ؟

السيد البدين ـ (متنهدا) : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هـذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو (١)

« أن سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

---

(١) شاعر فرنسى من شعراء القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ ـ ١٧١١م)

الفيلسوف ـ (فى صوت منخفض موجهـا الحديث الى الشاعر) :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ، بعد قليل

السيد النحيل ـ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ، ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا اخلاق فيها مثل « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا اعرفه !

السيد البدين ـ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقل لى ماذا ستفعل فى امر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة اسابيع ؟

السيد النحيل ـ آه ! قليلا من الصبر ! انا هنـا فى عطلة ودعنى التقط انفاسى . وسوف ارى ذلك بعد عودتى الى العمل، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى

خادم ـ (يدخل) : سيدتى : ان العشاء قد اعد !

رقم الإيداع
٢٠٠٢ / ٤٤٨٧
I- S - B - N
977- 07- 0827-5